أيام العمر الجميل





د. سمير سرحان

تليجرام

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

باحثون

محمد خطاب

تليجرام

غواص في بحر الكتب

أيام العمر الجميل

د. سمير سرحان



أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي
أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ش.م.م

رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب
حسام حسين

مستشار النشر
أحمد جمال الدين

رقم الإيداع
١٦٦٤٣ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى
٩ - ٤٧ - ٦٠٨١ - ٩٧٧

الطبعة الأولى
٢٠٠٣

مطابع ابن سينا

الكتاب: أيام العمر الجميل
المؤلف: د. سمير سرحان
الغلاف: للفنان إلهامى عزت
الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م
٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة
٥ ش محمد شفيق . من ش وادى النيل - المهندسين
E-mail:atlas@innovations-co.com
تليفون: ٣٠٢٧٩٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٠٤٣٤٦٩
فاكس: ٣٠٢٨٣٢٨

الإهداء

إلى أولادى

• حاتم

• وخالد

• ولارا

لعلهم يعيشون كما عشنا

ايام عمرنا الجميل فى الزمن القادم ..

سمير سرحان

مُقَدِّمَة

سيدى القارئ ..

هذه بعض من أوراقى.. أو قل بعض من أيامى الجميلة أضعها بين يديك.. ولتغفر لى إن كنت قد نسيت أو أخطأت.. فعذرى الوحيد أنى كتبتها بكل الحب لمن فيها من أبطال ومن أحداث.. وبالكثير الكثير من الصدق .

د. سمير سرحان

أحلى ١٧ جنيه !

قهوة عبد الله بالجيزة في أوائل الستينيات من القرن الماضي مقهى عادي في مظهره، ولكنه لم يكن عاديا بمن كان يضم كل ليلة من صفوة المثقفين والأدباء والنقاد.

على رصيف مقهى عبد الله بالجيزة كان يلتقي كل ليلة جمع متميز من الأدباء والنقاد . يتحاورون ، يقرءون لبعضهم البعض آخر إنتاجهم الأدبي، يشكلون ملامح نهضة أدبية وثقافية جديدة، تدور بينهم أحيانا المعارك الأدبية بين القديم والجديد، بين أنصار التراث وأنصار الحداثة.. بين أنصار الرومانسية ودعاة الواقعية.

في أحد شوارع الجيزة الضيقة كنت أقطن. ولم أكن أتعدى بعد عامي السادس عشر.. وكنت قد انتهيت لتوي من الشهادة الثانوية وأتأهب لدخول الجامعة.. وكانت تعتمل في صدري أحاسيس كثيرة إذ أشعر أنني خلقت لأكتب، وكنت أقرأ كثيرا نماذج من الأدب العربي والأدب العالمي، وكنت أقرأ في الإنجليزية التي كنت أجيدها إلى حد كبير رغم سني اليافع حينئذ، وكنت أسمع عن قهوة عبد الله القريبة من منزلي. وكنت أقرأ كذلك لكل الأسماء التي أراها- عن بعد- جالسة في المقهى، وكنت أخشى الاقتراب منهم.. رهبة للكلمة. وخشية من سطوة القلم. لكن غروري كان يصور لي – وأنا أرمق هذه الصفوة اللامعة عن بعد- أنني يوما ما وقريبا جدا سأكون واحدا منهم، ولم أكن أدري- في سذاجة ويفاعة الشباب الأول – أن الطريق طويل طويل. وشاق شاق.

واتخذت القرار. أن أصبح واحدا من رواد قهوة عبد الله، كاتبا مثل بقية الكُتاب الجالسين على رصيفها الزاخر نقاشا، وحوارا وصخبا، وكان لا بد لتنفيذ هذا القرار أن أنشر كتابا كاملا يصبح جواز سفري إلى الندوة الليلية بتلك المقهى. أجلس مع الجالسين أو على الأقل مع واحد من قبيلتهم.. هكذا صور لي

غروري الساذج وانكببت على مجموعة قصص أحبها وأنا أقرأ، وكنت أتمثل نفسي كاتبا لها، وأتمنى أن أكتب يوما مثلها، ولكني شعرت بالعجز إلى درجة البكاء لأن موهبتي الغضة لم تكن تمكنني من أن أتطاول عظمتها. وعندما اكتمل الكتاب ترجمة وتأليفا اتجهت بأصوله في ثقة- أحسد عليها- إلى دار الفكر العربي التي كانت من أكبر دور النشر المصرية والعربية وقتئذ.

كان صاحب الدار – الحاج عبد المنعم- رجلا طيبا، بشوشا، لكنه كان أيضا تاجرا ماهرا و(رجل سوق) يعرف ما ينفع من تجارة الكتب وما لا ينفع. إذ كان العصر عصر قراءة ولم يكن قد أفسده بعد التليفزيون ولم تكن أفسدته ثقافة (السندوتش) السريعة في وسائل الإعلام. وكانت القصة القصيرة قد بدأت- بفضل يوسف إدريس في مصر وسهيل إدريس في لبنان، وغيرهما في أرجاء الوطن العربي- تجتذب أعدادا ضخمة من القراء.

اتجهت بمجموعة قصصي التي أسميتها (سبعة أفواه) باسم القصة الأولى في المجموعة إلى صاحب دار النشر لأطلب نشرها.

هكذا دون مقدمات!! ولم يكن (الحاج) قد سمع من قبل بطبيعة الحال عني، ولا أدري كيف بلغت بي الجرأة أن أقدم مجموعة كاملة من القصص لأنشرها مثل اي كاتب شهير في هذا السن اليافع؟!

وكان من الممكن أن تأخذه القسوة بي فيصرفني من مكتبه ساخرا من جرأتي وتجاسري، لكنه – حتى لا يكسر خاطري ليوئد موهبتي في مهدها إن كان لدي ثمة موهبة- آثر أن يطلب مني شرطا تعجيزيا.

قال: (إن أنت أتيتني بمقدمة لهذه المجموعة بقلم ناقد شهير- وأطرق يفكر قليلا ثم أردف- كأنور المعداوي مثلا، فإنني سوف أنشر لك المجموعة).

كان أنور المعداوي ناقدا ملء السمع والبصر، وكان الحصول منه على كلمة نقدية في جريدة ناهيك عن دراسة نقدية كاملة تتصدر مجموعة قصص لكاتب ناشئ لم تتأكد موهبته بعد بمثابة الخوض في دروس المستحيل.

لكني – بحساب الشباب وسذاجته – اتجهت إلى مقهى عبد الله في الجيزة، وقدمت نفسي إلى أنور المعداوي وطلبت منه أن يكتب الدراسة النقدية لمجموعتي القصصية!.

لم يندهش أنور المعداوي لجسارتي.. فقد كان أستاذا بحق، يقدر الموهبة الوليدة حق قدرها.. يرعاها.. يتعهدها.. يحدب عليها.. حتى تثمر وتينع.. وقد- وجد في عينيَ اللامعتين بالطموح والأمل.. وإصراري على تحقيق ذاتي- شيئا ربما يتطور في المستقبل إلى مشروع كاتب. فكان قراره أن يأخذ المجموعة ويقرأها فإن أعجبته فسيكتب لها المقدمة المنشودة.. وضرب المعداوي لي موعدا بعد شهر. وظللت لا يخالجني النوم إلا ساعات قلائل قلقة طول أسبوع كامل.. أنتظر الحكم بالميلاد أو الإعدام.

ولم أطق صبرا أن أنتظر شهرا كاملا كأنه الدهر بلا نهاية. فذهبت إلى المقهى بعد أسبوع واحد من اللقاء الأول وهناك وجدت المعداوي بابتسامته العريضة وشاربه الرفيع المصقول وقامته الشامخة يرحب بي. ويأخذني بين أحضانه.. كان المعداوي قد كتب المقدمة .

لم أدر بنفسي أو بما أفعله فأخذت أجري كالمجنون إلى مقر دار النشر الواقعة عند باب اللوق ونسيت أن أركب الترام، (ولم تكن معي نقود على أي حال لأركب تاكسي)، وبعد نصف ساعة من الجري المتواصل عبر شوارع القاهرة، وأنا أرفع يدي بمقدمة أنور المعداوي وجدت نفسي وجها لوجه أمام الحاج عبد المنعم ودفعت بالمقدمة في نبرة انتصار واضحة .

أسقط في يد الحاج وتأمل المقدمة فإذا بها فعلا بقلم أنور المعداوي وإذا بها عني وعن هذه القصص الموجودة بالمجموعة. لم ينبس الحاج بكلمة واحدة، وإنما فتح درج مكتبه الأيمن في استسلام واضح وأخرج ١٧ جنيها وأعطاها لي، ثم أردف، مر عليَّ بعد شهر تجد الكتاب (مطبوعًا) أمسكت بالـ١٧ جنيها وأخذت أجري مرة أخرى إلى منزلنا بالجيزة لأضعها في يديَّ أمي وكأنني أقول لها: هأنا أصبحت رجلا وهأنا قد كسبت مالا من عرق جبيني.

كان هذا المبلغ البسيط (١٧ جنيها) ولا يزال أجمل وأحلى مبلغ كسبته في حياتي.

بنت الجيران (١)

في حياة كل منا بنت الجيران.. وأعني بها تجربة الحب الأولى التي تبدأ على استحياء في أي سن صغيرة وحتى سن المراهقة وتنتهي بمأساة الفراق والزواج بآخر أو بأخرى ثم ينسى الجميع كل شيء .

وغالبًا ما تقتصر التجربة على نظرات متبادلة تختلس من وراء شيش النوافذ.. أو ابتسامات متبادلة أيضا من وراء الأبواب المواربة عندما يكون العاشق الصغير.. أو البنت التي تجرب نار الحب ولوعة السهاد لأول مرة نازلين على السلالم متجهين إلى المدرسة أو السوق لشراء بعض الاحتياجات المنزلية بأمر من الأب أو الأم ..

وقد يتطور الأمر ويلتقيان على السلم المظلم الرطب في الحي الشعبي العتيق أو أسانسير العمارة (حسب الطبقة الاجتماعية وحي السكن)، فيحاول العاشق الصغير أن يمسك يدها الباردة فتخطفها بسرعة.. وتضطرم النيران فى وجهها

الصغير الذي يعلوه بعض الزغب الأصفر الناعم لأنها لم تكن قد عرفت المساحيق بعد ! وقد يحاول العاشق الصغير أيضا أن يكون جسورا جريئا جرأة أبطال الأساطير فيختلس أثناء هذا اللقاء العابر على السلم أو داخل الأسانسير قبلة على الخد فإذا نجح فهي مصيبة سوداء تحل بالبنت التي تضطرب مشاعرها أشد الاضطراب وتعلو وجهها حمرة كحمرة قلب البطيخة الشليان في عز الموسم وتشعر وكأنها ضبطت عارية في ميدان عام فينتابها شعور بالخجل الشديد.. وخوف مرعب من المجهول وكأن فضيحة مدوية قد حدثت ولا سبيل إلى إخفائها.. أما الولد (أو الشاب) فهو يشعر بالزهو الفظيع الذي يبعث فيه الإحساس بالرجولة المبكرة فتنتفخ أوداجه وتتمدد عضلات كتفيه ليبدو كأبطال الرياضة الأقوياء وينتابه شعور بأنه قد انتصر في معركة ولا نابليون في عكا أو الإسكندر في فتح الإسكندرية في مصر أو قندهار في باكستان (وقندهار بالمناسبة هي أيضا معناها مدينة (الإسكندرية) وإنما بالباكستاني وكانت آخر فتوحاته في أقصى الشرق) المهم تمضي أيام وربما أسابيع قبل أن يجرؤ العاشقان على أن ينظر كل منهما في وجه الآخر ناهيك

على أن ينال لمسة من اليد أو قبلة على الخد حتى يزول تماما ذلك الشعور بالخجل العارم والإثم المرعب والفضيحة المدوية !

وفي العادة فإن أبطال هذه التجربة الأولى في حياة كل منا هما اثنان: ولد وبنت.. أما أن يكون أبطال التجربة ثلاثة فهذا ما لم أسمع أنه قد حدث في أي زمان أو أي مكان، ولكن هذا ما حدث بالفعل بيني وبين صديقي الدائم محمد عناني من ناحية وبنت الجيران (جيراني أنا في منزل العائلة بالجيزة) وكان اسمها (جازية) من ناحية أخرى !

كنت أنا وصديقي العناني طالبين بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة.. وكنا مولعين نحن الاثنين بالشعر الإنجليزي الرومانسي الذي كان يدرسه لنا أساتذة كبار مثل مجدي وهبة وأمين روفائيل (في العصر الذهبي لهذا القسم العظيم).. وكان من عادة محمد عناني أن يمر عليّ في المساء في منزلنا نقرأ معا قصائد عن شكسبير. ومن أشعار الرومانسيين الإنجليز العظام وخاصة وليام وردزورث وهو الشاعر الذي كان يحتفل احتفالا عظيما بالطبيعة. وفي أواخر المساء كنا ننزل معا من شقة الأسرة في الدور الأول فنلاحظ عند الدور الأرضي أن باب شباك

الشقة الأرضية المصنوع من الحديد والزجاج ينفرج قليلا ويظهر منه وجه فتاة بيضاء الوجه سوداء الشعر الكثيف كأنه تاج يزين رأسها.. شديدة الجمال كالبطلات التي كان يتخيلها الشعراء فتسيل أقلامهم بأعذب أبيات الغزل! وكانت الفتاة ترمقنا معا (أنا والعناني) حتى نتجاوز الدور الأرضي وننزل إلى الشارع.. ويخيل لكل منا أنها كانت تودعه بابتسامة تقطر خجلا وعذوبة.. وكان يخيل لكل منا أن هذه الابتسامة تتوجه بها الفتاة له وحده، ولذلك فقد كنا (أنا والعناني) نجاهد أن نخفي عن بعضنا البعض ونحن ننزل من البيت إلى الطريق رعشة العشق الأولى التي يشعر بها أي شاب.. عندما يشعر بنظرات الحب الأولى ترسلها عينان جميلتان من وراء فتحة الباب في خجل واضح وجرأة واضحة أيضا! وأصبح شغلنا الشاغل أن نعرف اسم هذه الجارة الجميلة ذات العينين النافذتين حتى عرفت بالصدفة من أمي أن اسمها جازية وتكتمت الاسم عن العناني ولكني وجدت فيما بعد أنه يعرفه أيضا ولا أدري من أين. لكننا كنا نتلذذ كل ليلة بهذه الرحلة الليلية عبر الدور الأرضي حيث ينفتح شباك باب الشقة الأرضية عن وجه جازية لحظات خاطفة ويشعر كل منا أن

لديه سـرا عظيما يخفيـه عـن الآخـر.. ثـم نمضـي عـبر شـوارع الجيـزة وحواريـها حتـى حـي المنيـب في أول طريـق الصعيــد إلى مكـان ريفــي علــى شـــاطئ النيـــل أسمينـــاه بالــ NATURE (الطبيعـة) تيمنـا بـالموضوع الرئيسـي لـدى الشاعـر الإنجلـيزي الأعظم وردزورث الذي يعلمنا في أشـعاره أنـه لا بـد مـن الهـروب من المدينة بكـل مـا تمثلـه مـن ميكانيكيـة الحيـاة وآليتـها الـتي تخمد أنفاس الفرد ليعود إلى البراءة والتفرد!

بـنت الجـيران (٢)

برغم الفارق الشاسع بين (الطبيعة) التي تغني بها وردزورث في مروج إنجلترا عند منطقة (كوخ اليمامة) وبين تلك البقعة الريفية الكالحة على شاطئ النيل في جنوب الجيزة .

فإننا (أنا والعناني) كنا سعداء دائما بالهروب إلى هذه (الطبيعة) الفقيرة ظنا منا أننا نسير على درب التقاليد الرومانسية المعتمدة في نشدان البراءة والتوحد مع طهر الطبيعة في مواجهة الحياة الحديثة التي تخنق فردية الفرد وتحوله إلى ترس في آلة!

كانت كل هذه الأفكار تخطر ببالنا ونحن نسير وسط حقول الجيزة نترنم بأشعار وردزورث، دون أن يدور بيننا حوار حقيقي وكأن كل منا يخفي في صدره سرا رهيبا، لا يريد أن يفصح به للآخر.. وكأن هذا السر هو فتاة الشباك.. جازية!

وأذكر ذات مساء أننا افترشنا الأرض في أحد الحقول البكر عند نيل الجيزة والليل يكاد يصل إلى منتصفه وترامى إلى أسماعنا من بعيد صوت أم كلثوم وهي تشدو بأغنية رق الحبيب، وأخذ كل منا يتمايل طربا مع الصوت الآتي من بعيد ويتذكر ابتسامة جازية ويلمح للآخر أنه ربما كان يمر بأول قصة حب في حياته.. ولكن مع من؟! فهذا هو السر الأعظم..

وفي هذا الموقف الرومانسي المليء بحفيف الأشجار وضوء القمر والموسيقى تنساب عبر الحقول أخذ عناني يردد أبياتا من شكسبير قالها الدوق أورسينو في مستهل مسرحية (الليلة الثانية عشرة):

لو أن الموسيقى غذاء الحب

فأعطني منها المزيد

آه يا له من لحن جميل عذب..

تخفت نبراته شيئا فشيئا..

حتى يذوب ويتلاشى.

آه إنه يهب على الآذان كالنسيم العليل

ينساب رقيقا في بستان

من زهر البنفسج

فيبعث في الهواء

ر ائحته العطرة.

سرحت أنا والعناني كل في أفكاره.. ولا بد أنها كانت تدور جميعا حول جازية وابتسامتها العذبة.. وبما أن الموقف الرومانسي يقترن دائما في الوجدان كما في الأدب (الإنجليزي والعربي معا) فأخذ كل منهما يحدث الآخر عن الموت المبكر بوصفه أحد العناصر المكونة للموقف الرومانسي.. وعن أن هذا الموت عند الرومانسيين ليس إلا بداية لحياة أعمق وأوسع.. وأرحب. وفي رومانسية واضحة أغمض كل منا عينيه وتخيل انتهاء قصة حبه الولهانة بموت الحبيبة فلم يجرؤ أي منا على أن يخبر الآخر عن صاحبة هذا الحب العميق الذي ملك عليه قلبه وكيانه.. لكن دموعا ساخنة سالت على خد كل منا وهو يترنم بأشعار وردزورث في رثاء ابنته لوسي التي عندما ماتت تحولت إلى جزء من حركة الطبيعة ودوران الأرض.. تمتم

عناني بصوت خفيض والدموع تنسال من عيني أنا أيضا في حزن رقيق وشجن تهتز له الروح.

كانت القصيدة تقول في ترجمة العناني:

ختم النعاس على روحي وغيبها..

ومحا مخاوف البشر

فبدت لعيني فتاة ليس تلمسها

يد السنين والقدر

فالآن قد سكنت والقوة اندثرت.

ومضى زمان السمع والبصر

وغدت تدور ببطن الأرض دورتها.

كالصخر والأحجار والشجر.

واعتصر الحزن قلبينا معا إذ تخيل كل منا أنه لن يرى جازية مرة أخرى بعد أن تحولت إلى جزء من الطبيعة تدور دورة الأرض كل يوم شأنها شأن الأحجار والصخر والشجر!! لكنه دار بخاطري في نفس الوقت أن جازية إذا كانت قد ماتت ودارت

مع الأرض والشجر وهي في داخل بيتهم بالجيزة.. فأين يذهب البيت نفسه وهل سيدور معها ومع الطبيعة.. وأفقد أنا وأهلي الشقة التي يسكنون بها.. إن المسألة هي خيال رومانسي رقيق.. وبس!

لكن في كل الأحوال.. كنا نجد في الموت ذلك الموقف الرومانسي العظيم الذي يحول قبح الحياة إلى بهاء الخلود وموسيقى للكون. موقف أدبي خالد يثري الروح ويبعث الشجن في الوجدان.

وأردت أن أطمئن نفسي على أن موت جازية المحتمل وهي في ريعان شبابها- حسب قواعد الموقف الرومانسي.. هو شبيه بالتحول من عالم مليء بالقبح إلى عالم مليء بالروعة والبهاء والاكتمال ولذلك فإنه بدلا من الحزن على جازية (إذا ماتت) فلا بد أن نفرح لها.. وتذكرنا أبياتا من العاصفة لشكسبير نعى فيها أحد أبطال المسرحية أباه حين ابتلعته أمواج البحر قال:

(على عمق فراسخ خمسة يرقد أبوك

من عظامه تكونت شعاب المرجان

من عينيه تشكلت لؤلؤتان.

لا شيء فيه قد أدركه الفناء

وإنما أدركه في البحر التحول

إلى شيء رائع الجمال

مدهش البهاء

من حوله حوريات البحر تصدح

إني أسمع موسيقاهن الآن

حوله في كل مكان

وتذكر أيضا رثاء وردزورث لابنته لوسي حين قال:

ختم النعاس على روحي وغيبها

ومحا مخاوف البشر

فبدت لعيني فتاة ليس تلمسها

يد السنين والقدر

فالآن قد سكنت والقوة اندثرت

ومضى زمان السمع والبصر

وغدت تدور ببطن الأرض دورتها

كالصخر والأحجار والشجر.

وبعد هذه الموجة من المشاعر الرومانسية العارمة شعر كل منا بأنه في الأرض وحدها نحمل على أكتافنا الآثام.. وتزيد حدة شعورنا ببدايات الأشياء ونهاياتها حين تلطخ قلوبنا شرور هذا العالم.

أما هنا في هذه (الطبيعة) الكالحة الأشجار على نيل الجيزة وحتى بالرغم من قبحها بالمقارنة إلى الطبيعة التي كتب عنها وردزورث في ريف إنجلترا إلا أنها قد بعثت في نفسينا الشعور بالبراءة المطلقة والطهر المطلق بعيدا عن المدينة وفسادها ومشكلاتها، وبدا لنا أنه لا بداية لأي شيء ولا نهاية.. وأن كل شيء موجود منذ الأزل وسائر إلى الأزل.. وسرحت بعيني إلى حيث يسبح القمر المكتمل بضوئه الساطع فوق سماء الحقول في تلك الليلة وخيل إليّ أنني قد لمحت بقلبي سدرة المنتهى!

وتساءلت في نفسي.. هل بعثت جازية في نفسي كل هذه المشاعر.. وهل بعثت حبيبة العناني في نفسه مشاعر مماثلة؟!

وبدأت ساعتها أشعر بقرب شديد من هـذا الصديـق الجميـل الـذي أشـاركه إعجابي بالشعر الرومانسـي وبـالقمر المسـتدير الحـالم وبخفقـات القلـب المشحونة بالشـجن الرقيـق في تجربـة الحب الأول.

وسألته : ألم يأت الوقـت أن يبـوح لي بسـره الدفـين؟ أي اسـم حبيبته وشكلها.. والمكان الذي يتقابلان فيه.. وكـان العنـاني في لحظـة اعـتراف رومانسـية بمـا يعتمـل في قلبـه.. قـال أنـه فعـلا يشعر بالحب يطرق باب قلبـه لأول مـرة.. وأن هـذا الحـب فعـلا مغلف بحزن رومانسي رقيق.. وأن حبيبته موجـودة في بيتنـا.. في الطابق الأول.. وأخـرج لي خطابا رقيقا كانت قد دسته في يده من وراء البـاب ذات يـوم كـان يـنزل فيـه وحـده مـن بيتنـا بعـد انتـهاء ساعات المذاكـرة.. ارتجفـت يـدي وأنـا أمسـك بالخطـاب لأقرأه وكان مكتوبا بخد بدائـي قبيـح يقـول: حبيـبي أنتظـرك طـول الليـل لأراك مـن وراء الشبـاك.. وسـوف أمـوت مـــن كـثـرة الحب، إذا كنت تـريدني تعـالى لتطلـب يـدي مـن بابـا!. في صمـت رهيـب مثـل مشـهد ميلودرامي رهيب من فيلم (ذهب مع الريـح) أخـرجت من جيبي ورقة كنت أحتفـظ بسـرها الدفـين.. كـانت خطابا من جارـيـة دفعـت بـه إليّ مـن وراء البـاب وكـان الخطـاب

يقول: (حبيبي أنتظرتك طـول الليـل لأراك مـن وراء الشـباك.. أشعر أني سوف أموت من كـثرة الحـب.. إذا كنـت تريدنـي تعـالى لتطلب يدي من بابا!)

وكان التوقيع في الخطـابين.. هـو (حبيبتـك جازيـة) الفـرق الوحيد بينهما هـو أن أحدهمـا كـان موجـها لي ، والآخـر لعنـاني وبنفس النص وأن الاثنين قد دسـتهما بطلـة الحـب الأول في يـد كل واحد منا على حدة من وراء فتحة الباب!

كبرت مائة عام!

الكتاب الأول لأي كاتب حدث جلل في حياته.. لحظة الميلاد مليئة بالشغف والحزن الرقيق والفرح الغامر.

وعندما يمسك الكاتب في يده بكتابه الأول يشعر أنه قد كبر فجأة مائة عام.. ذلك أنه يدخل منذ تلك اللحظة عالم الكبار.. عالم المسئولية عن كل حرف يكتب بعد ذلك.. المسئولية عن موقف معين لا بد أن يتخذه من الكون والحياة، والناس، والأشياء .

فالكاتب لا يكتب لمجرد أن يسطر أحرفا على ورق، لكنه يكتب لكي يكتشف موقفه من الحياة!

منذ أن نشرت كتابي الأول (سبعة أفواه) بمقدمة نقدية لناقد كبير هو (أنور المعداوي) شعرت بفداحة المسئولية.. كيف اكتب بعد ذلك، ولماذا أكتب؟ وهذا هو السؤال. فداحة العبء الخطير أفقدتني شعوري بصباي، كان من المفروض أن أسير بين أقراني من الفتيان ألهو بالحديث عن فتاة.. أدخن سيجارتي الأولى على استحياء، أدخر نقودي لأشاهد أحد الأفلام. أهتم

بالفائز أو المهزوم في مباريات الكرة. أهيم في مساء الطرقات مع أقراني ضاحكًا مستبشرًا.

كنت قد تقاضيت من كتابي الأول مبلغ سبعة عشر جنيها دفعت بها إلى والدتي، ففرحت بها وأشعرتني أنني أصبحت فجأة رجل البيت.. أكسب من عرق جبيني وأنني أصبحت من ذلك اليوم أحل محل والدي المتوفي.

ووجدت نفسي فجأة الكبير، وأصبح الجميع يعاملونني باحترام وتوقير لا يتناسب مع سني الصغيرة،وكان عليّ أن أقبل الدور الذي الذي فرضته عليّ هذه المجموعة من الأوراق المطبوعة التي تحمل كلماتي الكبيرة ، فارتديت البدلة الداكنة الألوان، ورابطة العنق، واتجهت إلى قهوة عبد الله بالجيزة لأجلس مع الكبار وأقطع كل صلة برفاقي من الفتيان، وأتبادل اللفائف مع من قطبوا جبينهم بحثا عن حل لمشكلة تؤرق مجتمعهم الأدبي.. هل الشكل يأتي أولا أم المضمون؟!.

ولكنني عندما كنت أعود إلى غرفتي الصغيرة في المساء.. مثقلا بالمناقشات الحامية حول القضايا النقدية لم أكن أدري بالضبط ما أهمية تلك القضايا إزاء لحظة إبداع واحدة.. كنت

أهوي وقتها قراءة القصص القصيرة. وذات مساء فتحت أحد الكتب، وقرأت قصة للكاتب الروسي تشيكوف، اسمها: (الأسى)، في القصة يتحدث الكاتب عن الفلاح العجوز الذي أخذ يسوم امرأته العذاب طيلة أربعين عاما من زواجهما، كان فظا في معاملتها لأن همومه الكثيرة في الحقل ومعركته المريرة مع الفقر لم تترك له الفرصة لكي يُهدي لها ذرة من الحنان طيلة هذه الأعوام، وكانت هي تحتمله.. تتحمل إهاناته ومعاملته الفظة وتقدر له انشغاله بالكفاح من أجل لقمة العيش. كانت امرأة صبورة وفية مُحبة مثل آلاف النساء البسيطات اللاتي يفنين حياتهن من أجل الزوج والولد.. وذات يوم سقط جسدها الصابر العليل تحت وطأة المرض القاسي، وحملها الزوج في عربته الصغيرة التي يجرها الحصان إلى المدينة التي تبعد عشرات الأميال حتى يعرضها على الطبيب. كانت الزوجة الوفية ملقاة يفترسها المرض والإعياء في المقعد الخلفي من العربة، وكان هو يجلس في المقعد الأمامي يلهب ظهر حصانه بالسياط لعله يسرع بخطواته المتثاقلة في قطع الطريق الطويل الشاق.

وفجـأة.. شـعـر الـزوج العجـوز بمـرارة السـنوات الأربعــين في حلقـه، وأحـس بـالحنين والحـب الجـارف لهـذه الزوجـة العجـوز الوفيـة الـتي قطعـت معـه رحلـة الحيـاة صـابرة جـامدة دون أن تلقي منـه كلمـة طيبـة واحـدة طيلـة حياتـهما معـا.. وشـعر أن الحياة ظلمتهما معا عندما فرضت عليهما أن يدورا في طاحونـة الصراع مع الفقر والحاجة فلم يجـدا الوقـت لكـي يتبـادلا كلمـة رقيقة أو ابتسامة عذبة أو لحظة حنان .

وفجأة وجد نفسه يحكي لها.. يكلمها.. يبثـها حبـه وحنانـه وهي ملقـاة خلفـه في العربـة. كأنـه كـان يريـد أثنـاء الرحلـة أن يعوضها عــن أربعـين عامـا مـن العـذاب. كـان يقـول لهـا: (سـوف تشفين بإذن الله، وعندما نعود إلى منـزلنـا وأنـت سليمة معافـاة سـوف أعوضـك عـن كـل سـنوات المعانـاة. وكـل لحظـات الألم) وبكى.. قال لها: (كنـت فظـا معـك، وكنـت غليـظ القلـب.. لكـني اقسم ان أيامنا المقبلة سوف تكون هناء في هناء. وسوف أعوضـك بحناني عن كل شيء) ولم يسمع لها صوتا.

والتفت العجوز وراءه ليجد زوجته الوفية المخلصة قد ماتت في الطريـق! شـعرت ليلتـها بعـد قـراءة هـذه القصـة أن كـل

المناقشات النقدية عن الشكل والمضمون على مقهى عبد الله هي مناقشات عقيمة لا تساوي شيئا أمام عظمة لحظة الإبداع.. وشعرت أيضا بما هو أقسى. إن مصاحبة الكبار في مقهى عبد الله لا تغني عن التجربة المباشرة في الحياة .

فالحياة هي مادة الكاتب ، والحياة لا تنتظر.. أما المناقشات النقدية. فيمكن لها أن تنتظر، ورغم أنني شعرت بعد نشر كتابي الأول أنني كبرت مائة عام، فقد شعرت مع قراءة هذه القصة الرائعة أنني مازلت صغيرا .. صغيرا .

الهناء العائلي



جاء اليوم الموعود في أوائل صيف ١٩٦١، وتخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة القاهرة.

وعندما رأيت اسمي على قمة الكشف المعلق على أحد جدران القسم، لم أعد أشعر بوجود ما حولي من بشر وأشياء. وأخذت أحلم بالتعيين في الكلية سعيدًا، ثم السفر في بعثة إلى إنجلترا لاستكمال دراستي وأعود دكتورًا (قد الدنيا) وأستاذا بنفس القسم كما حلمت دائما. والأهم من ذلك أجول في كل الأمكنة التي قرأت عنها في الكتب فأذهب إلى بلدة ستراتفورد الصغيرة حيث ولد شكسبير.. وإلى لندن حيث عالم المسرح السحري، التي ذهب إليها شكسبير نفسه ليعمل سائسا للخيل أمام المسرح، ثم ليصبح بعد ذلك عبقرية الإنسانية كلها. ووجدتني أهتف في نفسي بأشعار شكسبير حين قال على لسان هاملت : (الآن أكون أو لا أكون) .

وأحسست لحظتها بالكون كله يموج بالبراءة، وتختفي فيه الشرور، وتمسح فيه آثام البشر!

أفقت على يد زميل لي كان يكبرني بعام ويعمل بالفعل معيدا بالكلية يشد على يدي مهنئا بالنجاح الباهر، ويحذرني في الوقت نفسه من الإسراف في الأحلام.. فلا درجات بالقسم ولا أمل في التعيين بالكلية هذا العام.. أو ربما لبضعة أعوام مقبلة.. وعليّ إن كنت أبغي أن أكسب عيشي أن أبحث لي عن عمل.. أي عمل.. (من أين أتى هذا الزميل بكل هذه المعلومات الإدارية أم أن المسألة كانت مجرد رغبة في استبعادي أو إلقاء دش بارد على أحلامي؟!).

بعد ذلك بأيام جاءني التعيين في مدرسة ثانوية تجارية بمدينة بنها مدرسا للغة الإنجليزية.. ووجدت نفسي أركب قطارًا في السادسة صباحًا.. متجها إلى عملي بتلك المدينة الإقليمية التي لم أكن قد رأيتها من قبل.. وفي القطار انتابني الشعور بأن كل دقة من دقات عجلات القطار وهي تطوي القضبان كانت تمزق جزءا من أوصال شكسبير.. وتمزق معها كل أحلامه.

وفي حجرة المدرس الأول بتلك المدرسة الريفية البسيطة قابلني الأستاذ فرغلي مهللا ومستبشرا.. (أنت إذن مدرس الإنجليزي الجديد.. مرحبا يا ولدي مرحبا.. أمامك العمر.. أمامك أغلى حياة.. سوف تسعد معنا هنا.. وعندي من أجلك المشاريع) .

لم أسمع ما قال وإنما هتفت نفسي مع شكسبير :

(أكون أو لا أكون.. تلك هي المعضلة) !

أردف الأستاذ فرغلي.. (وستكون على خير حال.. ولأنك سمح الوجه.. طيب القلب كما أراك.. سأشاركك على بقرة .. تدفع من ثمنها بعضا من راتبك كل شهر.. تلد لنا.. نبيع صغارها ونجني من وراء بيع لبنها ما يسبغ علينا الستر فيما يتلو من أيام..

ولأنك – كما أراك – سمح الوجه طيب القلب.. فلا مانع عندي من أن أزوجك من ابنتي.. تعيش هادئا هانئا سعيدا.. طوال الأيام).

لم أطق صبرا على احتمال تلك الصورة التي رسمها لحياتي رئيسي مدرس أول اللغة الإنجليزية بتلك المدرسة الريفية حين

وصلت إليها في ذلك الصباح في عام ١٩٦١، ولم أكن لأتصور أن تنحصر اهتماماتي فيما يأتي من أيام العمر في تدريس تلاميذ المدارس مبادئ اللغة الإنجليزية مع قضاء أوقاتي خارج المدرسة في تسمين البقرة وحلب لبنها وبيع نسلها.. والزواج من ابنته الريفية التي تقتصر مهمتها على أن تملأ فناء بيتي أولادا وبناتا حتى نعيش في تبات ونبات .

كانت هذه الصور للمستقبل قد أصابتني بغم وكرب شديدين وتناقضت كل التناقض مع كل ما كنت أحلم به على قهوة عبد الله بالجيزة وسط كل الأسماء اللامعة من كبار المثقفين الذين خالطتهم ممن يشكلون وجدان وعقل الوطن ويرسمون بأقلامهم وفكرهم عالما أرحب وأوسع بكثير من عالم الزوجة والبقرة .

خرجت من حجرة المدرسين رافضا أن ألقي درسي الأول كما تقرر لي في جدول المدرسة وأنا عازم على الاستقالة الفورية.. ولو كلفني ذلك أن أقطع بيدي مصدر رزقي وأقفز دفعة واحدة إلى المجهول.. ولكني كنت مطمئن القلب إلى أن الأرزاق – على أي حال- بيد الله.. وأن الله قد حباني ببعض القدرات التي لم أعدم

أن أستخدمها لأكل قوت يومي.. لكني أبدا لن ألقي بنفسي مختارا في براثن ذلك المدرس الأول.. وابنته.. وبقرته..

واتجهت إلى حجرة ناظر المدرسة لأقدم استقالتي وأمضي فقيل لي إن الناظر في مرور على الفصول.. وعليّ أن أنتظر في الفناء المقابل، وفي الفناء وقفت وحدي برهة وسط هدوء شامل وعميق.. كان التلاميذ ومدرسوهم في الفصول.. ولم يكن يقطع الصمت الرهيب إلا زقزقة بعض العصافير في سماء الحقول المجاورة. ولأول مرة أشعر براحة عجيبة وإحساس عميق بالحرية. كانت أيام الخريف تضفي على الهواء مسحة رمادية رقيقة إيذانا بمقدم الشتاء.. ولسعة هواء باردة تلفح الوجه بين الحين والآخر فتنتعش لها النفس.

ومع نسمة الهواء البارد.. وقراري أن أهرب بجلدي من تلك المصيدة التي نصبها لي رئيسي المدرس الأول، ولو كان الثمن أن أقفز إلى المجهول، كان إحساسي بالحرية عميقا عميقا.. وبأنه لا الوظيفة ولا أي شيء آخر يعدل حريتي.. وما اختطته لنفسي من آمال.

صاح صوت من خلف ظهري وأنا أستمتع بذلك الإحساس العميق بالحرية.

- ادخل فصلك يا ابن الـ ..

وقبل أن التفت لأرى من الذي يوجه إليّ هذا السباب المفاجئ انهالت على ظهري ضربات عصا رفيعة لذاعة تكاد تمزق لحمي من تحت القميص القطني الخفيف.. والتفت مذعورًا ناحية العصا وصاحبها.. فوجدت رجلا طويل القامة أحمر الوجه أصفر الشعر أشعثه قد كشر عن أنيابه.. وعاود الصياح:

- لماذا لا تدخل فصلك .. يا ابن الـ .. ؟

ذهلت، وهرع المدرس الأول صاحب فكرة تربية البقرة إلى حضرة الناظر متوسلاً:

- يا حضرة الناظر.. إنه ليس واحدًا من تلاميذ المدرسة.. إنه المدرس الجديد للغة الإنجليزية.

فجأة اختفى من على قسمات وجه (حضرة الناظر) ذلك التعبير المرعب الذي يقترب في وحشيته من تعبير الأسد أو النمر ساعة الانقضاض على الفريسة.. وألقى بعصاه الرفيعة

التي يؤدب بها المارقين من تلاميذه.. واحتضنني وهو يضحك ملء شدقيه قائلا:

- يا أخي.. شكلك صغير.. فما ذنبي؟!

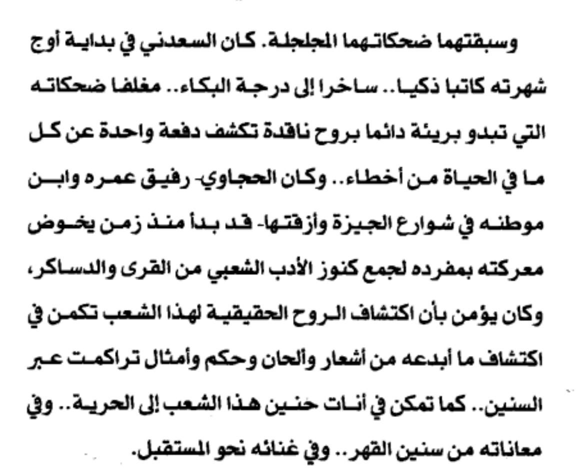
التفت إليه مدرس أول اللغة الإنجليزية وقال:

- يا حضرة الناظر.. لسوف يعيش الأستاذ الجديد معنا كواحد من أفراد الأسرة.

وتذكرت صورة (الأسرة) وما تحتوي عليه من هناء عائلي كما رسمها لي الأستاذ فرغلي المدرس الأول للغة الإنجليزية بتلك المدرسة الريفية فأطلقت ساقيَ للريح!

ربع كيلو كباب ؟

ذات مساء في أوائل الستينيات دخل محمود السعدني وزكريا الحجاوي قهوة عبد الله الشهيرة الواقعة في ميدان الجيزة.



وسبقتهما ضحكاتهما المجلجلة. كان السعدني في بداية أوج شهرته كاتبا ذكيا.. ساخرا إلى درجة البكاء.. مغلفا ضحكاته التي تبدو بريئة دائما بروح ناقدة تكشف دفعة واحدة عن كل ما في الحياة من أخطاء.. وكان الحجاوي- رفيق عمره وابن موطنه في شوارع الجيزة وأزقتها- قد بدأ منذ زمن يخوض معركته بمفرده لجمع كنوز الأدب الشعبي من القرى والدساكر، وكان يؤمن بأن اكتشاف الروح الحقيقية لهذا الشعب تكمن في اكتشاف ما أبدعه من أشعار وألحان وحكم وأمثال تراكمت عبر السنين.. كما تمكن في أنات حنين هذا الشعب إلى الحرية.. وفي معاناته من سنين القهر.. وفي غنائه نحو المستقبل.

عندما دخل الحجاوي القهوة نظرت إليه فرأيت فيه الفارس (جاسون) الذي قرأت عنه في أساطير اليونان القديمة.. يخرج

منفردا في رحلة الأهوال ليعود بالفروة الذهبية.. وهكذا كان الحجاوي في نظري.. فارس مصري أسمر.. ملتهب العينين ببقايا رمد قديم كذلك الذي يصيب آلاف المواطنين من فلاحي مصر.. لكن في العيون توهج غريب.. وإصرار على إعادة اكتشاف وجدان هذا الشعب.. بكل صدقه وأصالته. فعاد من رحلته على طول مصر وعرضها بآلاف الأشعار والحواديت والأغاني والآهات التي يطلقها أفراد فرقته، والآلات الشعبية تعزف وتغني تراث هذا الشعب الأصيل على الربابة والأرغول.. كما وقع الحجاوي في حب الوطن، وقع في غرام خضرة.. الفلاحة السمراء القادمة معه من أعماق ريف مصر تغني بصوت قوي كأنه يصدر من أعماق السنين السحيقة عذابات وأفراح عمر الوطن الممتد على ضفاف النيل.. فتزوجها لكنه لم ينجب منها أولادا!!

وفي ركن قصي من المقهى جلس نجيب سرور الشاعر الذي أصبح له – فيما تلا من أيام – شأن كبير.. وكان يبدو كسيرا وحيدا مهزوما.. لكن عينيه كانتا تتألقان بوهج وحشي.. كان يغني للفقراء والمقهورين البسطاء.. وكانت الكلمات في يده سلاحا بتارا لا يعرف الهوادة.

كان نجيب سرور هو الشاعر الذي عاش يحلم للفقراء.. ومات فقيرا وغريبا وبعد أن أجهض الحلم القومي عام ١٩٦٧. في تلك الليلة من ليالي أوائل الستينيات شعرت أنني أقرب رفقة إلى نجيب فعمدت إلى طاولته لأجلس بجواره.. وأنشدني نجيب بعض أشعاره فانتشيت.. وشربت الشاي، ودخنت بشراهة عددا من السجائر الونجز الثقيلة حتى أعطي لنفسي أهمية المثقف الكبير (لم أكن بعد أفهم شيئا في الأشياء العميقة!). وكنت أشعر بحب شديد لنجيب لأنه إلى جانب كونه شاعرًا فإنه رجل مسرح أيضا، وكنت أشعر بحب دافئ للمسرح يملأ عليَ نفسي منذ بدايات اهتمامي بالأدب. وكان نجيب أيضا ممثلا ومخرجا.. وكان يستعد لإخراج إحدى مسرحيات تشيكوف- الذي كنت من أشد معجبيه- لكنه لم يكن قد أصبح بعد واحدا من هؤلاء العمالقة الذين يخشى التقرب إليهم لأنه لا يستطيع أن يطاولهم قامة.. جلست بجوار نجيب أختلس النظر إلى الجالسين حول الشطرنج.. وقد اتسعت الحلقة لتضم إلى جانب القط وعباس صالح- المعداوي والسعدني والحجاوي والكاتب القصصي عبد الرحمن فهمي. وخيل إليّ وأنا أراهم من طاولتي في ركن المقهى أن هناك دخانا شديد الرقة بدأ يتصاعد في أرض

المقهى شيئا فشيئا.. دخانا رماديا تشف فيه الأجساد فتصبح كأطياف حلم.. ورأيتهم يكبرون شيئا فشيئا ويكبرون.. وخيل إليّ أن المكان كله قد تحول إلى أطياف عملاقة تسبح في فضاء القهوة تضحك أحيانا وتصرخ أحيانا وتهمهم بهمهمات لا أدري معناها. وشعرت أن نفسي أصبحت أدق حجما بينما تكبر الأطياف من حولي وتختلط ببعضها البعض وهي تسبح، وإذا بالقهوة تتحول إلى كتاب ضخم هو (كتاب فاوست) للشاعر الألماني جيته، ووجدت نفسي والقهوة وأطيافها السحرية تتحول إلى مشهد ليلة الجحيم في مسرحية جوته.. وتتحول الأطياف إلى أشباح، والأشباح إلى أرواح هائمة تجردت من أجسادها ورقت وشفت، واخترقت حجب الماضي والحاضر والمستقبل.. تماما كشخصيات (ليلة الجحيم) في كتاب جوته التي رأت من أحوال هذه الدنيا ما لم تره عين.

واستيقظت على نداء من نجيب سرور..

- هل معك خمسة قروش؟.

- لماذا؟

- أردف نجيب: نفسي في ربع كيلو كباب.. أريد أن آكل كبابا وليس معي ولا قرش..

انقشع الضباب الرمادي فجأة.. وشعرت أنني هويت من حالق وسمعت صوت السعدني وهو يصيح.. (هيا بنا أوصلكم بسيارتي ياولاد الـ..) وكانت شتيمة السعدني المازحة لعمالقة الفكر في القهوة هي الأمر المعتاد الذي يأخذونه ببساطة وعفوية شديدة، ويضحكون له كأنه أمر طبيعي لا يصدر إلا من السعدني فهو لا يستريح إلا بعد أن يفاجئ أكثر الناس وقارا وأشدهم احتراما بحكم السن أو المكانة بشتيمة من الأب.. أو الأم. يصعق لها المشتوم المحترم لأول وهلة ثم يعتبرها بعد ذلك مجرد دعابة فلا يملك إلا أن يضحك ويقول في نفسه: هذا هو السعدني! وهذه هي طبيعته!! (بالمناسبة كنت أنا آخر المشتومين من السعدني في أخبار اليوم السبت الماضي ولم أملك إلا أن أضحك!).

كان السعدني هو الوحيد في أفراد المجموعة الذي يملك سيارة متهالكة قديمة وضعها أمام رصيف القهوة ونهض الجميع ليركبوا السيارة.. إلا أنا وصاحبي نجيب سرور أخذنا نرمق

الجمع العائد في آخر المساء وحلم الكباب ما زال يراودنا، فلا نستطيع تحقيقه بإفلاسنا المزمن، وأصدرت السيارة عندما حاول صاحبها أن يدير موتورها- أصوات حشرجة عجيبة انخلع لها قلبي، وصاح السعدني بضحكته المجلجلة.. (هيا زقوا يا أولاد الـ.. حتى أوصل كل واحد إلى بيته) واختفت- في ذلك المساء- السيارة القديمة بخمسة عمالقة بأحلامهم العظيمة وهم يدفعونها من الخلف في طريق الجامعة والسعدني يركب وحده داخل السيارة محاولا قيادتها، والعمالقة يتصببون عرقا!.

المحرومون من العيد !

يظل الإنسان يعيش حياته كل يوم.. ويشاهد عشرات الناس، وربما أحيانا المئات، وتصافح عيناه الشوارع والأشجار والمخلوقات، ويمارس العديد من الأعمال ويأكل ويشرب وينام..

لكنه لا يدرك (المعنى) من وراء ذلك كله.. حتى تأتي عين الفنان اللاقطة.. وبما اختصه الله به من موهبة.. فتثير فجأة كل شيء.. إذ تضع يده مباشرة على (النمط) أو (النسق) الذي يحكم كل هذه التفاصيل.. وتنفذ به مباشرة إلى قلب الأشياء ومعناها .

في إحدى قصص مجموعة (أرخص ليالي) واسمها (نظرة) يصور يوسف إدريس خادمة طفلة تحمل على رأسها صينية ضخمة من المأكولات عائدة بها بعد إنضاج ما فيها في الفرن القريب.

والخادمة الطفلة لا يكاد رأسها الصغير يظهر من تحت ذلك الحمل الكبير الذي تحمله على رأسها.. وتحاول في مجهود بطولي أن تحافظ على توازنها فلا يسقط الحمل من فوق رأسها فتتعرض لعقاب أليم من مخدومتها إذا هي سكبت ما تحمله على رأسها من طعام .

استمع إلى يوسف إدريس يصف الطفلة الخادمة ويحدد علاقته بها :

(كان غريبا أن تسأل طفلة صغيرة مثلها إنسانا كبيرا مثلي أن يعدل من وضع ما تحمله. وكان ما تحمله معقدا حقا.. ففوق رأسها تستقر صينية بطاطس بالفرن، وفوق الصينية حوض واسع من الصاج مفروش بالفطائر المخبوزة. وكان الحوض قد انزلق رغم قبضتها الدقيقة التي استماتت عليه حتى أصبح ما تحمله كله مهددا بالسقوط.

ولم تطل دهشتي وأنا أحدق في الطفلة الصغيرة الحيرى، وشرعت لإنقاذ الحمل. وتلمست سبلا كثيرة وأنا أسوي الصينية فيميل الحوض. وأعدل من وضع الحوض فتميل الصينية، ثم أضبطهما معا فيميل رأسها هي.. ولكنني نجحت أخيرا في تثبيت

الحمل. وزيادة من الاطمئنان نصحتها أن تعـود إلى الفـرن وكـان قريبا حيث تترك الصاج وتعود لتـأخذه. ولست أدري مـا دار في رأسها فما كنت أرى لها رأسا فقد حجبه الحمل. كل ما حدث أنـها انتظرت قليلا لتتأكد من قبضتها ثم مضت وهي تغمغم بكـلام كثير لم تلتقط أذني منه إلا كلمة (ستي).

وتتعلق عينـا الـراوي بالطفلـة وهـي تعـبر الشـارع لتتوقـف بـرهة وتلتفـت إلى مجموعـة مـن الأطفـال في مثـل سـنها يلعبـون الكرة في الشارع. وتلقي الطفلة عليهم نظرة طويلـة ثـم تمضـي إلى سبيلها ويبتلعها الشارع!

وفي هذه (القصة) الجميلـة لا توجـد حكايـة بـأي معنـى مـن المعاني ولا موقف يتطور من بداية إلى نهاية.. ولكنها تصور مـن خلال ضربات سريعة لفرشاة رسام باهر القدرة موقفا إنسـانيا بالغ الروعة والتأثير.. فها نحن بإزاء تلك الطفلة التي قدر لها أن تحرم من طفولتها وتعمل حتى تكسب قوتها.. وهـا هـي تحـاول بكل ما أوتيت من قوة أن تحافظ على مصدر رزقها فـلا يسـقط منها ما تنوء بحمله على رأسها. ها هي تتوقف للحظة حين ترى غيرهـا مـن الأطفـال يلعبـون ويلـهون فتتمنـى أن تكـون معـهم.

طفلة مثلهم لا خادمة مرعوبة من عقاب سيدتها.. ورغم أنها تنجح في ألا تسكب على الأرض ما حملته من طعام، إلا أنها تترك طفولتها المسكوبة على أرض الطريق مع أقرانها من الأطفال وتمضي.

لحظة مشحونة مكثفة نرى فيها هذه الطفلة المعذبة المحرومة من أبسط حقوقها تعبر فيها نظرتها إلى أقرانها من الأطفال وهم يلعبون عن عذاب الدنيا وحرمان الدنيا.. ومعاناة الدنيا ..

هنا لا قصة ولا حكاية ولا حدوتة.. وإنما واجهة مباشرة لحقيقة الإنسان حين يحرم من أبسط حقوقه. حين يصل إلى قمة معاناته.. حين يقدر عليه أن يعيش مصيرا لا يستطيع الفكاك منه. ترى كم طفلة مثل هذه محرومة الآن من العيد في مصر المحروسة ؟!

التابعي و(عندما نحب) !

في أوائل الستينيات ظهرت في الأفق المسرحي قنبلة كان من شأنها أن تقيم حركة مسرحية نابضة وواسعة خلقت العديد من الكُتاب والفنانين والممثلين ووسعت قاعدة جمهور المسرح إلى حد مذهل .. وهي مسارح التليفزيون..

ولقد كان لي وصديقي محمد عناني تجربة مثيرة مع مسرح التليفزيون. إذ استدعانا ذات يوم السيد بدير إلى مكتبه وجلسنا معه جلسة طويلة شرح لنا فيها الفكرة من مسارح التليفزيون.. والتي نبعت من إيمان صاحبها ومعاونيه بضرورة تحقيق التكامل المنشود بين الثقافة والإعلام، فالثقافة يصنعها المثقفون، والتليفزيون هو أهم جهاز منوط به توصيل الثقافة إلى القاعدة العريضة من الجماهير .

ومن ثم تم تحت إشراف السيد بدير إنشاء عدد كبير من مسارح التليفزيون أعطيت فيها الفرصة لعدد هائل من شباب الممثلين من خريجي معهد الفنون المسرحية وغيره لكي

يمارسوا إبداعاتهم، كما أعطيت الفرصة لكل من لديه القدرة على أن يقف وراء خشبة المسرح مخرجا، أو مصمما للديكور، لكن بقيت هناك- مع هذا الكم الكبير من الفرق وبرامجها السريعة الطموح.. إذ كان من المخطط لها- تحقيقا لهدفها الأساسي وهو تغطية التليفزيون بالسهرات المسرحية التي تعرض على شاشته.. أن تقدم كل منها مسرحية لمدة أسبوع أو أسبوعين ثم يتم تصويرها وتعرض في التليفزيون ثم تقدم مسرحية وغيرها وهكذا- فمن أين تأتي هذه المسارح وكل هذه النصوص؟

ومن هنا نشأت فكرة الإعداد المسرحي عن الروايات الأدبية الكبرى، ولقد كان قدري أنا وصديقي محمد عناني أن نكتب العمل الأول الذي بدأت به هذه الحركة التي ملأت ليالي القاهرة فنا ومسرحا.. وهكذا كلفنا السيد بدير بإعداد رواية محمد عبد الحليم عبد الله المسماة (من أجل ولدي) للمسرح.

وأذكر انه بعد نجاح هذه المسرحية حدد لنا صلاح منصور الممثل والمخرج موعدا في كازينو صان صوصي بالجيزة وأعلن لنا أن حلم حياته هو أن يقوم بإخراج مسرحية عن رواية

لمحمد التابعي اسمها (عندما نحب) وحكى لنا- بحماس شديد- عن قصة هذه الرواية التي تتناول حكاية بطل رياضي في العدو فارع الجسم متضخم الأعضاء ملك كل شيء جمال الجسم وجمال الروح.. لكنه يصاب بمرض في القلب.. ويصر على دخول مسابقة كبرى في العدو متحديا كل شيء ولكنه في نهاية الشوط يموت .

ولقد شعرت وصديقي العناني أن الرواية ليس فيها من الفكر ما يمكن أن يشكل نواة لعمل مسرحي مهم أو حتى ذي قيمة.. لكن صلاح منصور أخبرنا أنه اتفق مع السيد بدير على إعداد هذه الرواية وعلى اختيارنا للقيام بهذا الإعداد الجديد بعد نجاحنا في إعداد رواية (من أجل ولدي) لمحمد عبد الحليم عبد الله، وأن كل ما يرجوه أن يشعر المتفرج عند مشاهدة المسرحية- بعد إعدادها عن الرواية- أن هذا البطل هو من القوة والفحولة الجنسية ما يجعل الناس تبكي بكاء مرا عندما يكتشفون أنه كان طول الوقت مريضا بالقلب دون أن يدري أحد.. وبذلك يكون موته في السباق الأخير فاجعة تنفطر لها القلوب!

ووعدنا صلاح منصور خيرا.. وقرأنا الرواية القصيرة التي لم نجد فيها غير خيط قصصي رفيع استقاه المؤلف – على ما يبدو- من قصة حقيقية لشاب رياضي من نادي الجزيرة..

فأخذنا ننسج حول هذا الخيط القصصي الرفيع أحداثا وشخصيات جديدة يمكن أن تثري الحدث الدرامي ، وقررنا أن نذهب للقاء محمد التابعي ومناقشته في أمر هذه الخطوط الجديدة التي أضفناها إلى القصة حتى يمكن تحويلها إلى مسرحية جيدة.. وحدد لنا الأستاذ التابعي موعدا في الرابعة بعد ظهر أحد الأيام بشقته الفاخرة في عمارة ليبون على نيل الزمالك.. وفي الموعد تماما ذهبنا ليفتح لنا الباب خادم نوبي كامل الزي بالطربوش والحزام القصب والقفطان الأحمر تماما مثلما كنا نشاهدهم فقط في بيوت الباشاوات بالأفلام السينمائية، وشعرت برهبة شديدة إذ قادنا ذلك الخادم إلى صالون ضخم أخذنا نسير إلى نهايته وتصورنا أنه دهر طويل لن ينتهي، فكان طول البهو نفسه وفخامة ما فيه من أثاث وتحف على الجانبين سببا لإلقاء الخشية بل الرعب في قلبي وصديقي..

وبعد أن تصورت أننا سرنا مسافة ساعة حتى وصلنا إلى الكنبة الواقعة في آخر البهو أو الصالون أشار لنا الخادم النوبي وانصرف وتركنا في حيرة ووجل لمدة زادت على النصف ساعة، ثم عاد وفي يده صينية عليها كأسان فاخران من الكريستال ممتلئان بسائل أصفر يميل إلى الحمرة وخشيت أن أمد يدي إلى هذه الكأس لكن العناني أسرع بالشرب كعادته دائما في الاحتفال بكل ما يؤكل أو يشرب دون مراعاة للظروف المحيطة.. واكتشف أنه عصير البرتقال الطازج كما نبهته أيضا أنه نوع فاخر من البرتقال بدمه.

وبعد انتظار دام أكثر من ساعة ظهر الأستاذ التابعي من آخر البهو، تماما مثل الباشاوات في الأفلام السينمائية – يرتدي روب دي شامبر قصيرا فوق البنطلون والقميص والكرفاتة الفاخرة.. ونهضنا واقفين، وقد شعرنا باللحظة التاريخية، فها نحن الآن في حضرة الأستاذ التابعي.. التاريخ والتألق والمجد.. الرجل الذي أسقط بقلمه الوزارات وصادق الملوك والملكات وكان أستاذا لمعظم صحفيي العصر الكبار..

وسلم علينا الأستاذ التابعي بشيء من اللامبالاة وكأنه فوجئ بصغر سننا، وأشار إلينا بالجلوس دون أن يفتر ثغره عن ابتسامة أو يشعرنا بما يمكن أن يذيب المسافة الرهيبة التي حرص على خلقها بينه وبيننا حين أتينا لمناقشته في روايته.. وران صمت عميق قبل أن نبدأ في شرح ما أردنا أن نضيفه على القصة الأصلية من إضافات في الإعداد المسرحي..

وتباريت أنا وصديقي في الشرح في كلمات سريعة مضطربة لاهثة وأسهبنا دون أن نشعر بأي رد فعل من جانب الأستاذ التابعي أو نظفر بأي تعليق منه على ما نقول.. وبعد نصف ساعة من الكلام المتواصل شعرنا بالإرهاق والإحراج معا فكففنا عن الكلام. وران صمت عميق آخر قبل أن أسأل الأستاذ التابعي عن رأيه فيما سمعه فإذا به يفاجأني قائلا وكانت هذه أول مرة يفتح فيها فمه منذ أن بدأت الجلسة:

-يا ابني أنا بكتب الرواية زي ما بلعب طاولة. ما يهمنيش تعملوا فيها اللي أنتم عاوزينه. وكان هذا إيذانا بانتهاء المقابلة فنهضنا أنا وصديقي وسلمنا شاكرين وانصرفنا مودعين الخادم النوبي بمثل ما استقبلنا به من صرامة وجهامة.

-كانت مفاجأة حقيقية لي ولصديقي أن يقول الكاتب الكبير أن كتابة الرواية بالنسبة له هي أشبه بلعب الطاولة ونحن الذين كنا نحترم أشد الاحترام الجهد الذي يبذله الفنان لخلق عمل فني.. ولا نتصور أن يعامل كاتب كبير عملية الكتابة الفنية بمثل هذه الاستهانة والاستخفاف!! ولكننا أدركنا بعد ذلك أن الأمر لم يكن استخفافا من الأستاذ التابعي، وإنما كان يعتبر كتابة الرواية هي عملية ترويح عن نفسه بعد عناء الكتابة في السياسة وأمورها المعقدة.

وعلى أي حال فلم يقدر لهذه المسرحية المعدة عن رواية الأستاذ التابعي أن تظهر على المسرح لأسباب عديدة منها أن الإعداد لم يعجب مخرجها صلاح منصور فاعتذر عن إخراج المسرحية بعد أن كنت والعناني قد قبضنا عربونا قدره خمسون جنيها .

رئيس الوزراء لا يدفع الرسوم الجمركية !

في عام ٦٤ بدأت أفكر جديا في طريقي الجامعي، وكان عليّ أن أحصل على الشهادات العليا التي تؤهلني لأن أصبح أستاذا بالجامعة..

واستطعت في أوائل عام ١٩٦٥ أن أحصل على إجازة دراسية لدراسة الدكتوراه في إنجلترا وأمريكا.. واخترت أمريكا ولا أدري لماذا اخترتها. بينما اختار صديقي محمد عناني إنجلترا شغفا بشاعرها وردزورث، وولها بأشعاره.. لكن الفرحة لم يقدر لها أن تتم. إذ فوجئت أنا وزملائي بعد تردد طويل على مكتب السيد علي صبري رئيس الوزراء حينئذ ربما يصل لمئات المرات حتى نحصل على الموافقة النهائية بالسفر، إذ كان لا بد في ذلك الوقت من موافقة رئيس الوزراء شخصيا على سفر المواطنين – فوجئنا جميعا بأنه لا بد من دفع مبلغ ألف جنيه بصفة تأمين حتى نستطيع الحصول على هذه الموافقة ونسافر للدراسة .

وأسقط في يدي وصديقي العناني فمن أين نأتي بهذا المبلغ المهول في ذلك الوقت؟ أما صديقنا الثالث عبد العزيز حمودة (الذي أصبح الآن أستاذا مرموقا) فقد كان من أسرة تملك بعض الأفدنة في الريف، وسارع إلى طلب النجدة من أخيه الأكبر محمد وكنا جميعا نحبه لأنه يمثل طيبة الفلاح المصري الحقيقي وأصالته، وكان ثراؤه النسبي يبدو في ملابسه الريفية الأنيقة، وكان إذا حضر إلى القاهرة ليزور عبد العزيز ويجدنا نأكل البيتزا تشبها بالفرنجة يتعجب لماذا لا نأكل العيش وحده ونغمسه بالجبن ثم نحرس الوجبة بالطماطم والزيتون كباقي خلق الله بدلا من لخبطة ذلك كله على بعضه في رغيف واحد يدخل الفرن لينتج عنه هذه العجينة المسوخة التي نسميها (البيتزا) وكنا نضحك لسذاجته وعدم درايته بالمسالك والدروب الأوروبية والأمريكية، لكن المهم أنه دفع لعبد العزيز عن طيب خاطر الألف جنيه المطلوبة للتأمين بعد أن باع له نصف فدان كاملة وفلت عبد العزيز من مصير الفقراء أمثالنا وبالفعل سافر للدراسة في أمريكا.

وكنا جميعا في وداعه في ليلة مشهورة أحسست فيها بالفرحة لأن واحدا منا قد استطاع أن (يفلت) من قبضة تلك

القيود التي وضعت أمامنا جميعا، وفكرت في الوقت نفسه أن أترك نهائيا حلمي بالعمل أستاذا بالجامعة لأتحول إلى العمل بالصحافة أو بالنقد الأدبي في الصحف السيارة.. أو أن أكسب عيشي من الترجمة التي كنت أجيدها، أما العناني فقد أخذ هذه الصدمة بطريقته الساخرة المعهودة وأنشأ قصيدة فكاهية يعزيني ويقول فيها:

سرحان يارب الدرامة والمقالات العجيبة

في كل ما تمليه يا ويلاه أغراض مريبة

ولسوف ترحل للولايات التي

بهرت أخاك ابن العزيز

وربما نلت الحبيبة!!

وهي قصيدة تحتوي على بعض الإشارات التي طالما ضحكنا عليها طويلا والتي يحسن شرحها هنا.. فالإشارات في البيت الأول إلى ما كنت أكتبه بغزارة أحسد عليها من مقالات سواء في مجلة المسرح أو غيرها من المجلات الأدبية.. وهي في نظر العناني مقالات تبعث على الريبة! أما الإشارة بعد ذلك فهي إلى سبق

صديقنا عبد العزيز حمودة إلى السفر إلى الولايات المتحدة التي ظل مبهورا بها سنوات أثناء دراسته للماجستير عن أدب كاتبها المسرحي الأشهر (تنسي وليامز) وصورة الجنوب الأمريكي في أعماله.. مؤكدا في الوقت نفسه أنه بالرغم من العقبات المادية واستحالة دفع مبلغ التأمين المهول فسوف أرحل لا محالة إلى تلك الولايات.. لكنه في البيت الأخير يعود فيشككني في نتائج تلك الرحلة فيحذرني من أن السفر قد لا يعني أن أحصل تلقائيا على الحبيبة (أي الدكتوراه) وإنما المسألة أنني إذا سافرت (فربما) أحصل على تلك الحبيبة.. وهذا يعني بطبيعة الحال أنني ربما أيضا لن أحصل عليها!! وهو تشكيك واضح إما في قدرتي العلمية أو في نذالة الأمريكان! وزاد من حسرتي أنا وصديقي أن كان لنا زميل بالقسم اسمه أحمد كمال.. وكان فقيرا فقرا مدقعا لكنه- إلى جانب عمله بقسم اللغة الإنجليزية- يعمل بالإذاعة مترجما بمرتب قدره سبعة عشر جنيها، ويعمل بعدة أماكن أخرى مستخدما درايته باللغة الإنجليزية، وكان بخيلا بخلا شديدا.. وله في ذلك فلسفة خاصة تتلخص ببساطة في سؤال واحد وهو: ما ضرورة دفع مبلغ – أي مبلغ- لا ضرورة لدفعه؟!

فما ضرورة أن يدفع المرء مثلا قرشا ثمنا لتذكرة الأوتوبيس حتى ينتقل من مكان لآخر بينما خلق الله له قدمين يمشي عليهما ويتنقل!

وما ضرورة أن يأكل الإنسان ثلاث مرات في اليوم إذا كان يستطيع أن يظل على قيد الحياة بأكلة واحدة فقط في اليوم؟! وما لزوم المأكولات الدسمة إذا كان الأكل هو عملية ملء للبطن والإنسان يستطيع أن يملأ بطنه بأي شيء حتى ولو كان عدة أرغفة من الخبز وقليلا جدا من الجبن؟!

وهكذا استطاع أحمد كمال أن يوفر من مرتبه وما يكسبه من أعماله الإضافية في عامين فقط ألف جنيه بالتمام والكمال دفعها تأمينا لسفره في اجازته الدراسية إلى أمريكا.. واختار فرعا من الدراسة- كان حديثا في ذلك الوقت يعتمد على الحسابات العقلية المحضة وهو اللغويات!

سافر عبد العزيز حمودة وسافر احمد كمال، أما أنا وصديقي العناني فقد مكثنا في القاهرة كبنتين لا يطلبهما أحد للزواج.

وأغرقنا أحزاننا في جلسات الكازينو على نيل الجيزة، وفي المشي الطويل على شاطئ النيل بعد ميدان سوق الأحد من جهة ساقية مكي التي أسميناها (بالطبيعة) حتى قرأت ذات صباح في أهرام الجمعة خبرا صغيرا جدا مفاده أن الحكومة قررت إلغاء مبلغ التأمين المفروض على أعضاء الإجازات الدراسية، المسافرين للحصول على درجاتهم العلمية في الخارج.. ولاحظت أنا وصديقي العناني أن المقال الرئيسي في الجريدة- لمحمد حسنين هيكل- كان عن ضبط السيد علي صبري رئيس الوزراء نفسه بعدد مهول من الحقائب والبضائع التي جلبها معه من الاتحاد السوفيتي وحملها موظفوه على عدة لوريات وخرجوا بها من المطار دون أن يدفع عنها الرسوم الجمركية المقررة .

العنزة في قسم الشرطة!

عندما لم أجد عملا في الجامعة في أوائل الستينيات قررت أن أعمل صحفيا .. أخذني صديق لإحدى المجلات الأسبوعية، وهناك قبلوا أن أعمل معهم تحت الاختبار..

وكان أول تكليف لي كصحفي أن أغطي رحلة بعض السادة الذين سيذهبون في فجر اليوم التالي لصيد البط في بحيرة قارون بالفيوم.

ومع الفجر الجديد وجدت نفسي مع هذه المجموعة من الأثرياء الذين يرتدون ملابس الصيد، سراويل منتفخة داكنة الصفرة، وقمصانا حريرية زاهية، وقبعات كاكية مستديرة كتلك التي كنت أراها- حينئذ- في أفلام الأدغال الأجنبية ويرتديها المستعمرون الأوروبيون في هجومهم على الإنسان والحيوان من أهل البلاد التي يغزونها.

وكان كل فرد من أفراد المجموعة- التي يبلغ عددها عشرة أشخاص أو نحو ذلك- يتربص وراء (خص) من القش شاهرا بندقيته نحو تلك الطيور البريئة التي كانت قد فتحت لتوها أعينها وأخذت ترفرف في بشر بأجنحتها فرحا بمقدم الصبح الجديد.

وكان من أصول اللعبة أن يمسك أحد الأفراد بصفارة تطلق صوتا يشبه صوت البط البري السابح في البحيرة حتى يجذبه نحو بنادق الصيادين المتربصين، ولما لم يجدوا أحدا يقوم بهذه المهمة التفت أحدهم إليَ وسألني عن سبب وجودي في هذا المكان فأجبته : أنني في مهمة صحفية لتغطية هذه المعركة التي بدت لي غير متكافئة بين الإنسان بأسلحته التي تفتك بكل ما هو جميل في الحياة.. وبين تلك الطيور التي لا تدري من أمر من يتربصون بها شيئا، (ولم يفهم الصياد من هذا الكلام شيئا واعتبره سفسطة لا لزوم لها) ودفع في فمي بالصفارة وأمرني بالنفخ فيها حتى تصدر صيحات متقطعة منتظمة تجذب البط.

وأسقط في يدي.. ووجدت نفسي أنفخ في الصفارة وأصدر أصواتا كصوت البط.. وخيل إليّ للحظة أنني تحولت إلى بطة.. وأن كل البنادق مصوبة إليّ.. وأنني أخوض معركة رهيبة ضد وابل من الرصاص الذي سينهال عليّ بعد لحظة.. وشعرت أن الحياة هي أثمن ما في الوجود.. فوجدت نفسي فجأة ألقي بالصفارة وأطلق ساقي للريح.

لقد كانت لحظة كثفت في وعيي إحساسا لم أشعر به ولم أفكر فيه من قبل..

إنه الموت، ففي لحظة من الممكن أن تنطلق نحوي رصاصة فينتهي كل شيء وتعجبت لماذا يفعل الإنسان وحده- دون مخلوقات الله جميعا- ذلك؟! لماذا يضطهد غيره من مخلوقات الله؟ لماذا تتملكه تلك الرغبة الشريرة في تدمير غيره فيمسك البندقية ويقتل؟ وتساءلت في نفسي: هل رأى أحد يوما عنزة تمسك بعنزة أخرى وتقتادها إلى قسم الشرطة؟

وهل رأى أحد يوما حمارا أو حصانا أو حتى أسدا يمسك ببندقية ويطلق رصاصها فيمزق أحشاء إخوته من المخلوقات

دون أن يرمش له جفن؟ أليس الحيوان بهذا المعنى كائنا أرقى من الإنسان وأقل وحشية منه بكثير..؟

ولماذا تكون للإنسان وحده كل هذه الطاقة على القتل والخراب.. والدمار؟ (ألا يذكرنا ذلك بما يحدث وما حدث في الأرض العربية في فلسطين والعراق؟) فقلت في نفسي (يفتح الله) وعدت إلى المجلة لأقدم استقالتي من الصحافة..

فقد أدركت أنني لن أكون أبدا صحفيا ، لأنني لا أستطيع أن أتجرد من مشاعري لأصف الحقيقة كما حدثت .. وليس كما أراها أنا أو كما تنطبع في وعيي. وكان عليّ لكي أعرف الحياة.. أن أختط لنفسي طريقا آخر.

ميلاد مجلة.. ورعشة الفرح!

بعد أن تم التعيين في قسم اللغة الإنجليزية انقسمت حياتي بين التدريس في الجامعة، والكتابة للمجلات الثقافية وبعض الصحف ومحاولة الكتابة الإبداعية.

وكان يحلو لي أن أختلف في المساء إلى كافيتريا فندق سميراميس القديم.. وكان مقهى أدبيا من نوع آخر غير قهوة عبد الله أو أنديانا، فالكافيتريا كانت تسهر للصباح..

وهناك كان يجلس كامل الشناوي الذي رأيته عدة مرات ولكنني لم أستطع أن أتعرف عليه لأنه كان دائما محاطا بشلته الخاصة، والضحكات تنبعث منهم متوالية بسبب القفشات الذكية التي كان يطلقها كامل الشناوي طوال الليل في سخرية مريرة من كل شيء وأي شيء.. وفي هذه الكافيتريا أيضا تعرفت على لطفي الخولي المفكر الاشتراكي الكبير وكان – من بين جميع الاشتراكيين- صديقا حميما لرشاد رشدي.

وكان إذا انقضى المساء يعودون جميعا إلى بيوتهم في الدقي حيث يسكن لطفي الخولي وفي الجيزة حيث يسكن رشاد رشدي

أمام حديقة الحيوان وكنت أسكن بعده في الميدان- يعودون سيرا على الأقدام عبر كوبري قصر النيل ثم الجيزة، تلفح وجوههم نسمات المساء الحنونة، وتطول بهم المناقشات في كل ما يهمهم من أفكار.

وكانت هذه الصداقة الحميمة بين لطفي الخولي ورشاد مثار إعجابي وعجبي أيضا.. إعجابي لتلك الموضوعات الشديدة التي ميزت فكر الاثنين معا.. فلم يكن ليرفض أحدها الآخر على أساس عقائدي أو أيديولوجي كما هو الحال مع بعض المثقفين المصريين الذين يتسمون بالمراهقة السياسية وعجبي لأن هذه الصداقة استمرت بل وقويت على مر الأيام خاصة عندما تم إنشاء مسرح الحكيم.

وكان إنشاء مسرح الحكيم حدثا جليلا في حياتي وحياة جيلي بأكمله، كما كان في حياة المسرح المصري نفسه.. عاد رشاد رشدي ذات يوم من أوائل عام ١٩٦٤ إلى مكتبه بالجامعة من اجتماع مع وزير الثقافة والإعلام حينئذ د. عبد القادر حاتم مبرنشقا سعيدا منتفخ الأوداج لامع العينين وأعلنت زملائي الجالسين في انتظاره في غرفته الصغيرة بالقسم وكانوا: (محمد

ـ عناني، وعبد العزيز حمودة وفاروق عبد الوهاب وآخرين من أساتذة القسم مثل الدكاترة: فخري قسطندي، وعزيز سليمان، وفايز إسكندر، وشفيق مجلى) وأنه قد تقرر إنشاء مسرح جديد باسم مسرح الحكيم يقف إلى جوار القومي ويقدم النماذج الرفيعة من الأعمال المسرحية المصرية المعاصرة.. وقد تكونت لجنة تنفيذية برئاسة رشدي نفسه ولطفي الخولي معا.. وأن المسرح سوف يكون تحت رعاية توفيق الحكيم نفسه إلى جانب أنه يحمل اسم الرائد الكبير.. وأن مقره سوف يكون في مسرح الكورسال في قلب عماد الدين.

وبدأ الجميع – وأولهم رشاد رشدي- وكأنهم قد أمسكوا بالحلم بين أيديهم- ودب فيهم جميعا حماس دافق.. وكان رشاد رشدي يعلم أنه سوف ينجح بإعطاء الفرصة لهؤلاء الذين لا بد سيثرون الحياة النقدية والمسرحية بإبداعاتهم وجهودهم..

وكان حلم رشاد رشدي ومعه لطفي الخولي – اللذان تحدثا فيه أمامي في نفس الليلة بكافيتريا فندق سميراميس- أن يتحول مسرح الحكيم إلى مؤسسة ثقافية متكاملة فتصدر عنه مجلة للمسرح، كما يقيم الندوات المسرحية والفكرية والتي

يناقش فيها ما تعرضه المسارح من مسرحيات، ويستضيف لها كبار النقاد والفنانين من مؤلفين ومخرجين وممثلين، كما يضم مركزا للتدريب والتجارب.

وهكذا تم تقسيم مسرح الحكيم إلى الفرقة المسرحية ، ومجلة (المسرح) و(نادي المسرح) الذي كان عليه أن يقوم بالندوات والتدريب والتجارب ..

بدأ العمل جديا في مسرح الحكيم – وكان على الفرقة المسرحية أن تبدأ موسمها الأول بمسرحية للحكيم نفسه، واختيرت مسرحية (بيجماليون) ثم تم التخطيط للموسم الأول على أن يقدم – بعد مسرحية الحكيم- المسرحية الثانية للطفي الخولي وهي فانتازيا بعنوان (الأرنب) من إخراج جلال الشرقاوي، ثم تتلوها مسرحية محمد عناني الأولى (البر الغربي) وذلك تحقيقا لرسالة المسرح في تقديم جيل جديد من الكتاب المسرحيين إلى الحركة المسرحية .

وبدأ الاستعداد أيضا على قدم وساق لإخراج أول مجلة للمسرح في مصر تقوم على أسس علمية وتم اختياري لأكون سكرتيرا لتحريرها ومعي محمد عناني .

وكان ميلادا مشهودا لهذه المجلة التي أصبحت الآن من المراجع الأساسية التي لا غنى عنها لأي دارس أو مهتم بالمسرح في مصر.

أذكر ذلك وكأنه حدث بالأمس عندما سرت مع رشاد رشدي ومحمد عناني في شارع محمد علي الذي يصل بين باب الخلق وميدان العتبة في وسط القاهرة نبحث عن مطبعة رخيصة تطبع لنا العدد الأول من هذه المجلة الوليدة..

ووجدنا مطبعة متواضعة، وأخذت أعمل بداخلها ليل نهار مع المشرف الفني صالح البيك حتى انتهى العدد الأول.. وفي ليلة الصدور.. وكانت القلوب واجفة ورعشة الفرح بالميلاد الجديد تسيطر على كل من اشتركوا في العمل ذهبت مع رشاد رشدي ومحمد عناني إلى المطبعة لنتلقى العدد الأول..

ولكننا روعنا بالغلاف وقد اختلطت فيه الألوان وتحولت إلى بقع عشوائية يختلط فيها الأحمر بالأخضر بالأسود، فلا يكاد المرء يتبين ما هو موجود على هذا الغلاف (وكان صورة لإحدى المسرحيات المعروضة حينئذ) أهي صورة أم كتابة أم نقوش سيريالية، وقد حدث ذلك بسبب تلك المطبعة البدائية التي

تطبع ألوان الغلاف بالكبس اليدوي لونا بعد آخر (فلم يكن الأوفست أو فصل الألوان من المخترعات التي عرفتها هذه المطبعة بعد) وما أن رأيت وأستاذي وصديقي هذا الغلاف الهلامي الألوان والشكل حتى أصابنا غم وهم عظيمان، وأسقط في يدي إذ تصورت أن حلم الجميع بالمجلة قد اصطدم بعقبة كأداء إذ أن إعادة طبع الغلاف كان يعني الانتظار أسبوعين آخرين وربما جاءت النتيجة بنفس القدر من السوء، لكن رشاد رشدي فكر بسرعة واتخذ قرارا- بتغيير الغلاف وطبعه على ورق أبيض تماما مع طبع اسم المجلة بالحبر الأسود..

وسهر الجميع ليلة بكاملها لطبع اسم المجلة على غلاف أبيض وتجليدها، وفي الساعات الأولى من الصباح كانت الثلاثة آلاف نسخة قد انتهت وكنت وأستاذي وصديقي نرقب العمال وهم يسابقون الزمن.. حتى جاءت سيارة شركة التوزيع في الفجر لتأخذ الأعداد وتوزيعها في القاهرة. وخرجنا من المطبعة وساعات الصباح الأولى تملأ صدورنا- بالرغم من كل الإرهاق وتحطيم الأعصاب- بهواء منعش يحمل الكثير من الأمل والفرح..

وسرنا حتى ميدان سليمان باشا حيث عرجنا على جروبي سليمان وتناولنا القهوة والكعك ثم خرجنا إلى الشارع لنجد عند أول فرشة من فرشات بائعي الجرائد بالميدان العتيق مجلة المسرح بغلافها الأبيض.. واشترينا نسخة والدموع تبلل عيوننا جميعا.. واحتبست الكلمات في حلوقنا فلم يملك أحد منا أن يقول للآخر كلمة (مبروك) وإنما وجدت أستاذي يضع راحته الحنون في كفي ويضغط عليها بكل ما أوتي من قوة.. كانت لحظة أعظم وأجمل وأروع من أي تعبير بالكلمات .

يا صديقي هل أنت منظم ؟

ذات مساء في أوائل الستينيات التقيت بصديق لي يساري اسمه ع. ص كان صحفيا نشطا..

يدبج الكثير من المقالات والتحقيقات ويظهر اسمه في العديد من المجالات ولكن ببنط صغير في آخر المقال، وكان يحاول أيضا كتابة القصة القصيرة وكان ع. ص في تلك الأيام فتى نحيلا.. يرتدي ثيابا رخيصة شأنه شأن كل الفقراء من الأدباء الشبان في تلك الأيام .

أخذنا نسير معا في دروب القاهرة القديمة حتى إذا قارب ضوء النهار على الاختفاء توقفنا عند أحد البقالين بحارة من حواري الدرب الأحمر، وطلب مني ع.ص أن أبرز ما لدي من مال حتى نشتري سندوتشا أو اثنين نصد به غائلة الجوع التي كادت أن تفتك بنا معا.. فأخرجت خمسة قروش تعريفة كانت هي كل ما معي في تلك اللحظة ودفعت بها إلى البقال الذي أعطانا رغيفين من الخبز الفينو يحتويان على شرائح من الجبن الفلمنك الأحمر وبعض الطرشي.

وأخذنا نلتهم السندوتشات بشراهة شديدة وع.ص. يحدثني عن الماركسية!

وفي هذا الحديث المختلط بأصوات القضم والمضغ والابتلاع أخذ ع.ص يشرح لي بعض آراء ماركس وإنجلز كما فهمها عن كتبهما المترجمة في بيروت.. وحثني على أن أقرأ كتاب (رأس المال) الشهير لكارل ماركس قراءة متأنية حتى أفهم جيدا آراءه عن دكتاتورية البروليتاريا (أو الطبقة العاملة)، وعرض عليَّ أن نذهب معا إلى حجرته التي كان يستأجرها على سطح أحد البيوت في حارة من حواري الجمالية ليعيرني الكتاب حتى لا أضيع الوقت في الأحلام.

وانسقت وراء ع.ص.. إلى بيته.. وصعدنا السلم الطويل إلى حيث غرفته المتواضعة المليئة بالكتب شديدة الجدية والصرامة والمرمية في كل مكان بلا ترتيب حتى ملاءة السرير.. وبحث ع.ص طويلا وسط أكوام الكتب والأوراق حتى عثر على نسخة قديمة من كتاب (رأس المال) أعطاها لي.. وليلتها أبديت حماسا شديدا للأفكار الاشتراكية التي كان رأسي يمتلئ بها من جراء الأحلام العظمى التي تسللت عبر الراديو

والصحف وصوت الزعيم عبد الناصر إلى أعصاب كل مصري في ذلك الوقت.. وقبل أن أستأذن شاكرا لأعود إلى بيتي حتى أقضي بقية الليل مع صفحات الكتاب الموعود بادرني صديقي ع.ص. قائلا:

-هل أنت منظم؟

لم أفهم في البداية ما يريده الصديق فبادرته بالإجابة:

-طبعا.. أنا منظم.. منظم جدا.. أصحو مبكرا، وأنام مبكرا.. وأعطي لكل شيء وقته المحدد!

-لا أقصد بالضبط هذا النوع من التنظيم.. وإنما ما قصدت إليه هو أن أعرف هل أنت عضو في تنظيم؟!

كانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن هناك شيئا اسمه تنظيمات سرية تعمل تحت الأرض.. وتتوسل بالعمل السياسي المنظم لتحقيق أهداف أخرى غير تلك التي ينادي بها عبد الناصر ولكنني لم أشأ أن أكشف عن جهلي أمام صديقي الذي كان حديثه كله محاولة لإفهامي أنه يتمتع بثقافة عميقة.. وخبرة سياسية واسعة.. وهو انطباع أدخل في روعي شيئا من الرهبة منعني من مواصلة الحوار معه فيما يعن لي

من أمور فكرية خشية أن يكشف الصديق سطحية فكري وعدم درايتي بالأمور العميقة.

(وقد اتضح لي بعد سنوات أن صديقي ع.ص لم يكن إلا إنسانا بسيطا بساطة الفلاح المصري المخلص البريء و(غلبان) غلب الغبراء.. وأنه لم يكن قد قرأ كتاب كارل ماركس).

وغلبني أمام ع.ص ليلتها ذل الخجل الذي كان يمنعني من مناقشة الكبار من مثقفي اليسار خشية أن يكتشفوا أنني لست من العالمين ببواطن الأمور السياسية لكنني قررت ألا يفتضح أمري أمام صديقي فيما يتعلق بأمور التنظيم والمنظمات فقذفت برأسي إلى الوراء وحاولت جاهدا أن أرسم على ملامحي مسحة من الصرامة والجدية، وأن أضع في عيني تعبيرا ينم عن الغموض المصاحب لعمق الفكر. وبادرت صديقي قائلا:

- بالطبع.. أنا منظم.. منظم طبعا..

- ومن أي تنظيم؟

أسقط في يدي فلم أكن أعرف اسم أي تنظيم من هذه التنظيمات التي يشير إليها صديقي، لكنني بادرت إلى التخلص من الإجابة في شيء من الذكاء موحيا إلى صديقي أنه من أصول

اللعبة ألا يبوح عضو في تنظيم لأحد باسم تنظيمه حتى ولو كان أخوه.

لكن ع.ص.. على ما يبدو- لم تنطل عليه هذه الحيلة تماما فبادرني قائلا:

-أريدك أن تنضم إلى تنظيم.. إنه السبيل الوحيد لتحقيق أحلامنا.

سألته في تؤدة:

-وما هي أحلامنا؟ أقصد ما اسم تنظيمكم؟

-(حديتو) .

كان الاسم غريبا.. يبدو وكأنه ليس اسما لتنظيم سياسي بقدر ما هو اسم لشخصية كوميدية شعبية في فيلم سينمائي من بطولة إسماعيل ياسين وعبد الفتاح القصري.. ولكنني فهمت بعد ذلك أنه مجموع الحروف الأولى من تنظيم شيوعي معروف هو (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) .

سألته وأنا شارد العينين متصنعا التعمق في الأشياء.

-ولماذا تنظيمكم بالذات ؟

أردف ع.ص:

-لأن المثقف الثوري لا بد وأن يكافح تحت الأرض. وربما يتعرض للسجن وللتشريد ولكن لا يهم . المهم أن تعيش الأجيال القادمة حلم الاشتراكية. بمعناها الحقيقي (لو كانوا قد أفهمونا في الراديو وخطب عبد الناصر أننا نعيش بالفعل حلم الاشتراكية، وأننا حققنا المجتمع الاشتراكي فماذا يقصد ع.ص بالضبط؟) .

وبدأ ع. ص وكأنه يردد كالببغاء الموقف الحتمي والضروري *لكي يكتسب المثقف الثوري وقتها صفة المثقف*.. أضاف :

-إن ما نراه حولنا ليس هو الاشتراكية.. إنها مجرد خطوة ولذلك نحن نتفق مع عبد الناصر.. ولكننا نخالفه ونقاومه في الوقت نفسه.. حتى نحقق الاشتراكية العملية.. التي يبدو أنه يقف ضدها بحكم تكوينه كقائد لثورة عسكرية.. وحاكم خرج من صفوف الجيش وليس من صفوف حركة للكفاح الشعبي المنظم والنضال الثوري لطبقة البروليتاريا ضد البورجوازية والرأسمالية .

همست في نفسي : (أهـذا هـو الحنجـوري بعينـه!) وعبـد الناصر- فضلا عن ذلك- ينتمي إلى البورجوازية الصغـيرة بحكـم تكوينـه الطبقـي.. ولذلـك يسـتحيل أن تتحقـق علـى يديـه دكتاتورية البروليتاريا بالرغم من كل ما يطرحه مـن شعارات داخل الاتحاد الاشتراكي.. وخارجه.. نحـن نوافـق عليـه لأنـه يقود ثورة في اتجـاه تحريـر الشعب ومحاولـة تحقيـق سيطرته على مقدراته.. لكننا نختلف معه ونقاومه لأنـها مجـرد خطـوة غير مكتملة على طريق طويل.. وربما يكون عبد الناصر نفسه حجر عثرة على هذا الطريق.

كان الكلام كبيرا كبيرا.. وإن فهمت منه أن (حديتو) وغيرها من التنظيمات الشيوعية في مصر ليست في جانب هذا المد الذي بدأ ثوريا هائلا والذي جاءت به قرارات عبد الناصر الاشتراكية وتغنى به إعلامه ومطربوه وكتاب أغانيه ليل نهار عبر الإذاعة والتليفزيون الذي ولد عملاقا.

وافترقنا على أن نلتقي مـرة أخـرى حتـى أقـرر مـا إذا كنـت سـأنتقل مـن (تنظيمـي) المزعـوم إلى تنظيـم (حديتـو) .. وتواعدنا على لقاء بعد أسبوع في نفس الغرفة على أسطح أحـد

البيوت القديمة بحي الجمالية الشعبي.. لكن هذا اللقاء الموعود لم يتحقق أبدا إلا بعد ذلك بسنوات طويلة عندما كبرت وأصبحت رئيسا لتحرير إحدى المجلات الثقافية- وهي مجلة المسرح- وطرق بابي ذات يوم كهل تدلى من تحت أنفه شارب كثيف يتخلله الكثير من الشعرات البيضاء وعلى رأسه هالة من الشعر الأبيض المنفوش على جانبي الصلعة التي امتدت حتى منتصف الرأس.. يرتدي بدلة أنيقة ويمسك في يده بعلبة سجائر أمريكية وولاعة فرنسية، وتعرفت بصعوبة على صديقي القديم ع.ص وعندما سألته عن أحواله طيلة ما مضى من سنين عرفت أنه تزوج زواجا قصيرًا ثم مر بأزمة شخصية طاحنة هجرته فيها زوجته وطلقت منه وسافر على أثرها إلى الكويت ليقضي في بلاد البترول سنوات طويلة يعمل محررا صغيرا مغمورا بإحدى صحفها.. وقد قنع من الغنيمة بالإياب.. وعاد بعد هذه السنوات الطويلة والعمر لم يبق منه أكثر مما راح فطفق يحاول مرة أخرى الدخول في الحياة الثقافية المصرية بادئا بكتاب أحضره لي لكي أساعده على نشره حول مباهج المطبخ الأمريكي.

ليلة أنس



في أواخر الخمسينيات بدأت كفيري في قراءة كتاب (رأس المال) لكارل ماركس، وكانت تجول بخاطري أفكار كثيرة عن ضرورة اقتران الفكر بالعمل الثوري..

وأن المثقف الحق لا يقتصر دوره على السباحة في بحر الأفكار، بل لا بد له أن يحول كل ذلك إلى نضال قد يكلفه حريته أو حياته.. وتذكرت قصصا سمعتها عن المثقفين في السجون، وأشعارا كانوا يحفرونها بأظافركم على جدران الزنزانات تتغنى بالغد، كما تذكرت مواقف ضاحكة باكية سمعتها عن واحد من المثقفين الثوريين وكان يعمل بمجلة روز اليوسف قبض عليه مع زميل له وهو كاتب وقصاص بنفس المجلة بتهمة الشيوعية وغضب ذلك المثقف الثوري غضبا شديدا ليس لأنه اعتقل دون ذنب جناه أو عقابا على أفكاره وليس على جريمة ارتكبها، ولكن لأنهم اعتقلوا معه ذلك الزميل.. وعند التحقيق المبدئي بادر المحققين قائلا:

أما أنا فشيوعي ومن حقكم أن تقبضوا علي وتعتقلوني.. ولكن لماذا تمسكون (ابن..) هذا؟!

وكان الشائع أن (ابن..) هذا من عداد المثقفين اليساريين العتاة! ولكن هكذا كان الخلاف بين فصائل اليسار في مصر حينئذ!

وتذكرت أيضا حادثة شهيرة تندر بها المثقفون في المقاهي وفي مجالسهم الخاصة حين تم اعتقال أستاذ شهير للنقد والأدب الإنجليزي كان قد فصل من قسم اللغة الإنجليزية قبل أن ألتحق به.. وعمل بالنقد الأدبي في الصحافة.. وقد تعرض ذلك الأستاذ في المعتقل إلى الضرب والإهانة ووصل الأمر إلى حد تهديده مع غيره من المعتقلين بالقتل في الصحراء دون أن يعرف لهم (طريق جره).. ولكنه لم ينس في غمرة الضرب والركل والصفع معلوماته الأكاديمية الغزيرة فصاح يطمئن زملاءه ألا يخافوا من القتل إذ لا يستطيع جلادوهم إبراز الجثة حسب النظرية المعروفة في القانون الروماني بـ (هابيس كورباس) .. HABIAS CORPUS إذ أنهم لا بد سيكونون مسئولين عن اختفاء عدد من المعتقلين دون أن يتخلف عنهم عدد مماثل من الجثث!!

ومنذ تلك الليلة التي قرأت فيها أجزاء من كتاب (رأس المال) أصبحت متحمسا أشد الحماس للأفكار الاشتراكية خاصة أن المناخ العام من حولي كان يشجعني على ذلك.

ومع بداية مشواري الأدبي حدثت في حياتي المفارقة الهائلة.. ففي ذلك الوقت كنت قد بدأت خطواتي الأولى نحو الكتابة الأدبية وأنا بعد في سن صغيرة جدا.. وألفت مع صديق لي اسمه سمير جمعة كان مثلي قد بدأ قراءة كتاب رأس المال وكنا بعد في الصف الثاني الثانوي. مجموعة من القصص أسميناها (ليلة أنس) وكان هذا الاسم هو عنوان القصة الأولى في المجموعة، كتبها سمير جمعة عن فتاة ساقطة جائعة التقطها من الشارع مجموعة من الشبان العابثين وأتوا بها إلى غرفة أحدهم في بدروم أحد المنازل في حي من الأحياء الشعبية الفقيرة ومارسوا معها الجنس، وهي تفعل ذلك لكي تجد ما يسد رمقها ورمق عائلتها الكبيرة التي تنفق عليها.. ولكن الشبان العابثين يخدعونها بعد أن يحصلوا على مرامهم ويلقونها في الشارع دون أن يدفعوا لها مليما.. وعند عودتهم يكتشفون أن المرأة قد سرقت وابور الجاز وهو القطعة الثمينة الوحيدة الموجودة بالغرفة.

لقد كانت قصة ساذجة ولكنها كانت أشبه بصورة المومس الفاضلة التي تسقط ضحية للفقر وظلم المجتمع، والتي- وإن سرقت- فإنك ستتعاطف معها إزاء هذه الشلة من الأوغاد الذين استغلوا جسدها وطردوها بلا رحمة في الشارع، وكانت القصة متمشية- بطريقة رومانسية- مع مناخ التعاطف الشائع مع الطبقات المسحوقة.

كانت مجموعة (ليلة أنس) مكتوبة من عشر قصص خمس منها كتبتها أنا، وخمس كتبها سمير جمعة.. وبمنتهى البجاحة قررنا نشرها في كتاب وذهبنا إلى شارع كلوت بك- وكان ذلك على ما أذكر عام ١٩٥٥ أو ١٩٥٦، وأخذنا نبحث لكتابنا عن ناشر من بين أصحاب بعض المكتبات التي كانت متناثرة هناك.. ودخلنا مكتبة صغيرة ألفينا في فاترينتها كتبا جنسية متعددة عليها صور نساء عاريات صارخة العناوين من أمثال (الصراع الجنسي) و(متعة الجنس) وغير ذلك.. ومع ذلك قررنا الدخول فإذا بصاحب المكتبة رجل أسمر طويل القامة عريض المنكبين أصلع الشعر أسمر البشرة كثيف الشارب في حوالي الأربعين، أذكر أن اسمه كان (نصر عبيد).. وعندما عرضنا عليه مجموعتنا القصصية لم يعر ما حوته من قصص التفاتا، وهي قصص كنا

نظن أنها شديدة التلاحم مع مشكلات المجتمع، وتعبر تعبيرا صادقا عن الموقف الاشتراكي أو ربما الماركسي من نماذج الظلم الاجتماعي على غرار قصص مكسيم جوركي الكاتب الروسي العظيم، لم يهتم الناشر بالقصص نفسها وإنما اهتم أشد الاهتمام بعنوان المجموعة الذي كان قد وضعه سمير جمعة اسما لأول قصة من قصصها وهو (ليلة أنس) ورأى فيها الناشر فرصة سائحة لكتاب جنسي جديد فاتفق معنا على نشر المجموعة دون عائد مادي مقابل الشهرة المدوية الذي ينتظر أن ينتشر انتشارا واسعا بسبب ما يحتويه من إثارة جنسية التي ستأتي بوضع اسمينا على غلاف الكتاب. وبالفعل تم نشر هذه المجموعة ضمن منشورات مكتبة نصر عبيد بشارع كلوت بك بغلاف زاهي الألوان تتوسطه صورة امرأة أفرنجية شبه عارية في منظر مثير للغاية وبيعت نسخه على سور الأزبكية بخمسة قروش للنسخة الواحدة!!

البيض والبولوبيف.. والأرض الخراب

لم يكن رشاد رشدي بالنسبة لي معلما أو أستاذا أو صديقا أو أبا.. وإنما كان كل هؤلاء مجتمعين..

وكان رشاد رشدي قد بدأ يكتسح الحياة الأدبية في أواخر الخمسينيات حين أخذ هو وفتحي غانم يحرران ملحقا أدبيا في مجلة آخر ساعة.. تخصص معظم صفحاته لفن القصة القصيرة، وكان رشاد رشدي ينشر في هذا الملحق قصصه مثل: عربة الحريم وغيرها، وكان أيضا يقدم لقراء العربية قصصا للكاتب العظيم تشيكوف والكاتب العظيم موباسان.

ومن خلال هذا الملحق وقع الجميع في هوى القصة القصيرة، وكنت واحدا من هؤلاء الذين شعروا أن القصة القصيرة تعبير صادق عن الحياة الواقعية.. وكانت الصورة التي رسموها على رصيف قهوة عبد الله لرشاد رشدي أنه رجل أنيق الملبس يمسك في يده بمنشة.. ويضع في كمه منديلا وأنه خواجة في ثوب مصري ويجيد الإنجليزية.. (عجبا.. كان لابد طبعا أن يجيد

الإنجليزية ألم يكن أول رئيس مصري لقسم اللغة الإنجليزية وآدابها تسلمه من الإنجليز بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦).. وعجبت لهذه الصورة.. فكأنه لكي يكون الإنسان أديبا لابد أن يكون فقيرا، رث الثياب، لا يعرف اللغات الأجنبية!!

بعد ذلك بسنوات عرفت أن رشاد رشدي لم يكن غنيا.. وإنما كان يسير على قدميه وهو أستاذ بالجامعة من مكتبه إلى منزله بالعباسية ولا يملك أجرة التاكسي.. وأنه كان يكره الأتوبيس لأنه لا يطيق أن يحشر البشر في علبة سردين متحركة تفقد كل واحد منهم فرديته وتحوله إلى كتلة صماء في مجموع أصم، ولذلك كان يمشي!

وتعرفت على رصيف المقهى بعبد اللطيف الجمال.. وكان عبد اللطيف في تلك الأثناء يعمل معيدا بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها وتلميذا أثيرا لرشاد رشدي.. وكان عبد اللطيف الجمال- والذي عمل بعد ذلك أستاذا بإنجلترا- شابا شديد النحافة.. غائر العينين والخدين.. غليظ الشفتين إلى حد ما.. صارم الوجه.. مجلجل الضحكة إذا ضحكها- ولم يكن يضحك إلا نادرا- واسترعى نظري في تلك الليلة أنه يدخن بشراهة شديدة لم أرها في

غيره.. فقد كان يشعل السيجارة من السيجارة وبذلك فهو لم يحتج طيلة الليلة لأكثر من عود أو اثنين من الكبريت.. وكان دائما ما يسرح بنظراته في سماء ميدان الجيزة، وكان أيضا يمسك في يده بكتاب يحرص عليه حرصه على حياته نفسها.. كتاب صغير، أزرق الغلاف بالإنجليزية يضم قصيدة (الأرض الخراب) للشاعر الإنجليزي الكبير ت.س. إليوت.

في الثانية عشرة مساء أغلقت القهوة أبوابها.. وتفرق جميع الأدباء الجالسين.. ودعاني عبد اللطيف الجمال لأن أتمشى معه في هدأة المساء في طريق الجامعة حتى أوصله إلى غرفته التي يسكنها في المدينة الجامعية.. فقد كان قرويا لا سكن له في القاهرة وتدخل رشاد رشدي ليحصل له على غرفة بالمدينة الجامعية مع الطلبة الغرباء.. وعينه مشرفا على دور في سكن الطلبة بصفته معيدا.

في طريق الجامعة دخنت أول سيجارة في حياتي مع عبد اللطيف الجمال.. وتوالت بعدها السجائر التي أصبحت أدخنها بنفس شراهة عبد اللطيف حينذاك تقليدا له.. وكانت مراهقتي وقوعا في هوى الأدب وذلك من خلال عبد اللطيف

الجمال الذي مضى يحدثني عن عملاقين بديا له في ظلام الطريق وكأنهما طائران أسطوريان يظللان الحياة بأجنحتهما التي تنشر النور والخير والجمال على ظلام هذا العالم المليء بشرور الإنسان، هذان العملاقان هما ت.س. إليوت في الغرب، ورشاد رشدي في مصر.

مضى عبد اللطيف يحدثني عن قصيدة (الأرض الخراب) فانبهرت بأبياتها التي تنعي خراب الحضارة الصناعية الحديثة وعزلة الإنسان وجدب الحياة فيها.. وأخبرني أنه وقع في هوى هذه القصيدة الجميلة عندما درسها له رشاد رشدي.. وقررت ساعتها أن أسعى بكل قواي لأن ألتحق طالبا بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة لكي أدرس على أيدي رشاد رشدي!

لم أستطع أن أودع عبد اللطيف الجمال على باب المدينة الجامعية، ورجوته أن يصعد معي إلى غرفتي ليحكي لي أكثر عن قصيدة الأرض الخراب، وأن يقرأها لي كلمة كلمة ويعينني على فهمها، وأن يحدثني أكثر عن رشاد رشدي.. ذلك الرجل الذي بدا لي في تلك اللحظة بعد منتصف الليل خارج الزمان والمكان وكأنه يعرف من أسرار اللغة والشعر والإبداع ما لا

يعرفه أحد غيره، وبدا لي وكأنه يحمل في جيبه مفاتيح ذلك العالم السحري الذي يقف ببابه متبتلا وجلا .. عالم الفن!

مع السيجارة الأخيرة من العلبة الونجز الإنجليزية الحامية .. توقف عبد اللطيف عند الكشك الملاصق لباب المدينة الجامعية واشترى علبة أخرى وأخذ يدخن بشراهة وهو يضع السيجارة في الجانب الأيمن من فمه تشبها بأصحاب الفكر المتعمقين في تأمل الأشياء ودعاني للصعود معه إلى غرفته .. لنقرأ معا (الويست لاند) (الأرض الخراب) ونتحدث عنها وعن إليوت ورشاد رشدي، وفي الغرفة الصغيرة أخرج الجمال كيسا به خمس عشرة بيضة وعلبة بولوبيف .. وفي اهتمام شديد وضع القلاية على سخان كهربائي صغير .. ومضى يقلي البولوبيف أولا ثم (يقفش) فيه البيض بيضة بعد أخرى حتى أتى عليها جميعا وهو يردد مطلع الأرض الخراب .

أبريل أقسى الشهور (ملحوظة: كان الوقت في أغسطس).

ينبت الزنابق من الأرض الموات .

يخلط الذكرى بالرغبة، يثير الجذور

الكئيبة تحت أمطار الربيع

بهرتني الصورة.. وإن كنت لم أفهمها حينئذ.. وبهرني أكثر ذلك الطبق الشهي من البولوبيف بكميات البيض المهولة والسمن البلدي الذي- زودت به عبد اللطيف أمه القروية حتى لا يجوع في بر مصر- وبدا لي كأنه يزغرد فوق صفرة البيض المشوية بحمرة اللحم المحفوظ.

ليلتها أتيت وصديقي على الطبق الشهي مع ما لا يقل عن خمسة أرغفة.. ومضينا بعدها نقرأ (الويست لاند) ونحزن لعقم الحضارة الحديثة ونتطلع إلى أن يأتي صباح اليوم التالي حتى نلتقي معا بالأستاذ الذي أدخل إلى دائرة اهتمام المثقفين العرب تلك القصيدة الرائعة.. رشاد رشدي .

وسافرت إلى المجهول !

ركبت الطائرة لأول مرة في حياتي متجها إلى المجهول وكانت فرحتي الغامرة بهذه الرحلة الأولى في حياتي لا يشوبها سوى حزن هادئ دفين يعتصر أعماق القلب لوفاة والدي الذي كنت قد ودعته فجأة- قبل أيام من هذه المرحلة- ليذهب في رحلته الأبدية.

وشعرت- وأنا أقف أمام موظف الجوازات وبيدي أول جواز سفر في حياتي- بمعنى الرحلة في حياة الإنسان.. فها هي رحلة قد انتهت.. رحلة أبي بكل ما فيها من لحظات فرح غامرة وألم عميق ومعاناة وآمال وأحلام.. وها هي رحلتي تبدأ.. إلى أين؟ لم أكن أدري.

وأمام موظف الجوازات مددت له يدي المرتعشة فدق بختمه الحكومي على أوراق الجواز.. وكان لرنين دقة الختم على جواز السفر وقع غريب في أذني كوقع دقات المسرح حين تعلن رفع الستار على مسرحية حافلة بشخوص جديدة ومواقف وأحداث

وعالم زاخر بالدهشة.. ثم خطر لي وأنا أخطو نحو صالة الترانزيت تمهيدا لركوب الطائرة أن الرحلة، أو المسرحية، كما هي تبدأ فإنها أيضا تنتهي.. وهي في كل الأحوال رحلة من المجهول إلى المجهول .

أدارت الطائرة محركاتها.. وفتحت ذراعي وهتفت أعماقي ترحيبا بالمجهول.. ولأول مرة في حياتي أرى مشهدا مهيبا اهتزت له أعماقي ورجف قلبي أمام قدرة الله حين نظرت من نافذة الطائرة فرأيت السحاب تحته بساط أبيض ناصع البياض كالقطن المندوف وكأنه بحر من الصفاء والطهر لا بداية له ولا نهاية. وطئت قدماي لأول مرة أرض أوروبا حين هبطت بي الطائرة في صباح خريفي ملبد بالغيوم، وفي صالة استقبال المطار وجدت صديقي القديم محمد عناني، وكان قد سبقني بشهور إلى السفر لإنجلترا ليبدأ هو الآخر بعثته لدراسة الأدب الإنجليزي.. وفرحت لمرآه فرحا شديدا.. فقد كنت آمل أن يقابلني هذا الصديق في المطار فيزيل عني كل إحساس بالغربة والوحشة في أول لقاء لي مع هذا العالم الجديد .

كنت قد تعرفت على (محمد عناني) وهو لا يزال طالبا في الليسانس بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها، وكان محمد قد تخرج قبل ذلك بعامين في القسم نفسه وعين معيدا به. كان وقتها فتى مشرقا ضاحك الوجه متهلل الأسارير مقبلا على الحياة إقبالا هائلا، وكان لسان حاله يهتف دائما أهلا بالحياة، ورغم أنه كان يميل قليلا إلى السمنة إلا أن قوامه الفارع لم يسمح لهذا القدر من البدانة أن يؤثر في تناسق مظهره العام. جذبني إليه لأول وهلة بوجهه الطفولي البريء وضحكته المجلجلة الصافية دائما وهي تصدر مباشرة من القلب خاصة حين يتذكر طفولته الأولى في رشيد، فينسى لهجته القاهرية المكتسبة ويتحول إلى الحديث باللهجة الرشيدية المحببة إليه وإلى السامعين ، فيغفل عن نطق نهايات الحروف، ويمط في الكلمات مطا حتى لكأنه يزيد معانيها عمقا وحماسا.

من الوهلة الأولى لتعارفنا عرفت أن محمد عناني يهوى الشعر والطيور، وأنه ورث حب الاثنين من والده واسمه أيضا محمد عناني.

فقد كان للأسرة تقليد رشيدي معتمد وهو أن تسمى مواليدها من الذكور محمدا وينتسب الجميع إلى اللقب الأكبر

عنـاني. وقـد غـرس محمـد عنـاني الأب في ابنـه حـب الفنـون والآداب والطيور والموسيقى جميعا ، فكان الابن شديد الاعجـاب بوالـده يقلـده أحيانـا ضاحكـا مـن محاولاتـه في كتابـة الشـعر التعليمي الساذج الذي يحذر فيه عناني (الأب) من قيود الزواج ونفقاتـه، أو قصيدتـه العصمـاء في وصـف فوائـد الملوخيـة بـالأرانب، أو في تعـداد مزايـا البطـاطس سيدة خضـراوات هـذا العالم. وكنت وصديقي العناني الابن نضحك مـلء شـدقينا مـن هذا الشعر الساذج الذي ينظمه الوالد في فحولة لغوية واضحة لا تتناسب مع المحتوى التافه لهذه الأشعار المنظومـة، وكنـا نتنـدر بهوايـة الوالـد في ركـوب الطـائرات دونمـا هـدف أو قصـد سـوى الطيران نفسه حتى أنفق ما لديـه مـن –مـال أو كـاد- علـى تلـك الهوايـة وعلـى هوايـة الطيـور الغريبـة منـها والمألوفـة ورسمـها وتصويرها وتوثيقها وإثبات كل ذلك في كتاب ضخم لم يقدر له أن ينشر حتى الآن، ومع كل ذلك فقد كان محمـد عنـاني يحمـل لوالده احتراما لا حد له، وحبا يقترب من درجة العشـق جعلـني أهوى ذلك الوالد وآنس إليه، وأتنـدر بغرائب أقوالـه وأفعالـه مـع صديقي وكنا نتذكر معا نوادره وأخبـاره في سعادة تذهـب عنـا هموم الدنيا .

عندما نزلت من الطائرة لأبيت ليلة واحدة في لندن في طريق سفري إلى واشنطن شعرت بسعادة لا حد لها، إذ كنت سأقضي ليلتي مع الصديق الذي كان علي أن أفارقه بعد ذلك لسنين لا ندري كم تطول، ولكنني عندما ألقيت نظرتي الأولى على صديقي الذي وقف ينتظرني في صالة استقبال المطار كدت ألا أتعرف عليه، فقد وجدت في المطار شخصا آخر، كان العناني يرتدي معطفا ثقيلا ويضع على رأسه قلنسوة من الفرو الثقيل تكاد تخفي أذنيه وجزءا كبيرا من وجهه، وكان يحمل في يده شمسية ضخمة، لكن أهم ما راعني من منظره الغريب أن ابتسامته المعهودة وضحكته المجلجلة الصافية قد اختفتا تماما ليحل محلهما حزن هادئ ورزين. وكان الطفل البريء بداخله قد اغتيل فجأة ليحل محله رجل كبير يحمل على كاهله هموم السنين.

وأدركت في ذلك الحين أن مرحلة البراءة من عمرينا قد انتهت، وأن سنوات النضج المقبلة مع كل ما قد تحمله من تحقيق للأحلام ستكون مصحوبة دائما بذلك الحزن الرقيق على زمن مضى كنا فيه أطفالا.

العدّاء يجري وحيدا

في مساء أحد أيام يونيو ١٩٦٤ وضعت رحالي في مدينة (بلومنجتون) ولم أستطع أن أتبين من نافذة الطائرة المروحية الصغيرة سوى أنوار خناقة متفرقة هنا وهناك.

وكأن المدينة المرتمية في أحضان الأشجار الكثيفة تغط في سباق عميق.. ووجدت في استقبالي بالمطار عددا من الدارسين المصريين هناك كان الدكتور الشكعة قد حدثهم تليفونيا في الصباح من واشنطن معلنا لهم عن مقدم زميلهم الجديد، طالبا منهم أن يستقبلوني بالحفاوة والترحاب في المطار حتى ينفوا عني شعور القادم الجديد بالوحشة والاغتراب .

وبالفعل اصطحبوني في موكب من السيارات الأمريكية القديمة التي لا تقوى ميزانياتهم الطلابية على شراء أفضل منها.. ولكنها سيارات على أي حال بعثت في نفسي آمالا عريضة بقرب امتلاكي لسيارة حتى لو كانت مفككة الأوصال مرتجة الأجزاء كتلك التي ركبها أحد الزملاء المصريين الذي دعا

الجميع إلى عشاء بمنزله أعده خصيصا بمناسبة وصول القادم الجديد.. وفي منزل هذا الزميل كانت في انتظارنا مائدة عامرة بالدجاج الأمريكي المشوي والأرز الأبيض طويل البذرة الذي لم أكن قد رأيته من قبل، مطهيا بالزبد، فأقبلت عليه وعلى أفخاذ الدجاج الهائلة الحجم بتلذذ شديد، وأستقر في نفسي بعد أن رأيت ناطحات السحاب في نيويورك وأفخاذ الدجاج المشوية في منزل مُضيفي أن كل شيء في هذه البلاد ضخم ضخامة القارة الأمريكية نفسها.. الطعام والأبنية والمساحات، والتقدم العلمي المذهل، والثروة الهائلة، والمنافسة القاتلة، وحتى الجريمة .

مضى الليل في ضحكات شبابية صافية، وفي أسئلة ملهوفة عن مصر وأحوال المصريين وعن عبد الناصر، أما عن الحزن الدفين الذي كان يعتصر القلوب وراء القهقهات العالية فشعرت أنه الشوق المشبوب إلى الأهل والأحباب، والحنين الجارف إلى الجذور الراقدة على ضفاف النيل.

وفي الصباح فتحت ذراعي للمدينة الصغيرة وقلت مرحى مرحى.. ها هي الأقدام تدب على أرض بعيدة تتحقق فيها الأحلام في الحصول على مبتغاي من شهادة عليا.. وعندما اختلفت إلى درسي الأول حرصت أن أسأل أستاذي وكان أمريكيا

مـن أصـل ألمـاني واسمـه هورسـت فرنـز متـى تحـين العـودة.. أو بالأحرى هل تطول بي الدراسة؟ وعندما علمت من هذا الأستاذ أنه لا بد أن أستقر بتلك المدينة لفترة لا تقـل عـن أربـع سـنوات اعتصر الحزن قلبي- فقـد بـدا لي الزمـن ثعبانـا طويـلا ممـدودا من تلك اللحظة إلى لحظة الأبد.. وحلمت منذ أول يوم مـن أيـام دراستي بيوم العودة فـأردت أن أختصـر الزمـن بـأي شـكل.. ولم يكن هذا سوى مجرد جزء مـن طبيعـتي الـتي تتعجل دائمـا كـل شـيء- فكـل شـيء عنـدي كـان يبـدأ لكـي ينتـهي وهكـذا- وربمـا توافقت هذه الطبيعة الدفينة مع ما صادفته طول حيـاتي مـن التبكـير في كـل شـيء.. فقـد كـبرت مبكـرا.. وكتبـت أول حـرف مبكرا ونشرت أول كتاب لي مبكرا.. وخالطت نجوم عصري مـن الأدبـاء والمفكريـن وأنـا بعـد في السادسـة عشـرة ونلـت إجـازتي العلمية الأولى وذاع صيتي بين الأدباء وأنا بعد في التاسعة عشـرة والنصف، وجئت إلى هذه المدينة لأحصل على الدكتـوراه وأنـا في الحادية والعشرين. (فهل قدّر لي أن أبدأ الأشـياء وأنتـهى منـها في وقـت يسـتغرق مـن غـيري عمـرا بأكملـه؟) وكثـيرا مـا تـردد في ذهني- ولا يزال- أنه منذ أن بدأت الحيـاة كـان مقـدرا لي أن ألهـث إلى النهاية كالعداء يجري وحيدا لا يلوي على شيء.

لكن عندما وصلت إلى هذه المدينة الأمريكية الصغيرة الجميلة كأن الأمر مختلفا.. فلم أكن قد جئت إليها من حياة منغلقة كتلك التي يعيشها الطالب الفلاح في ريف مصر عندما ينتقل فجأة إلى الجامعة في المدينة فتتفتح أمامه آفاق لم يكن يحلم بها.. وهو النموذج الذي رسمه أمين يوسف غراب في رائعته (شباب امرأة) وإنما كنت مخلفا ورائي في القاهرة عالما صاخبا من حياة المسرح في مسرح الحكيم بالذات ومئات الصداقات، والكثير الكثير من متعة الفن ومتعة الفكر.. حياة كاملة صاخبة كنت أعيشها كل يوم في قلب القاهرة بعماد الدين من الصباح إلى المساء ألتقي بمئات البشر وأناقش آلاف الأفكار وتزدحم نفسي بمختلف المشاعر والأحاسيس، وكنت أشعر بمتعة لا حد لها في رؤية الممثلين وهم ينطقون على المسرح بكلمات كتبتها وأنا جالس على مقاهي القاهرة.. كما كانت هذه الحياة مليئة بصداقات حفرت في نفسي أخاديد عميقة من الود ودفء المحبة.. كل هذا تركته فجأة لأجد نفسي وحيدا في هذه المدينة الأمريكية الصغيرة، وإن كان قد احتفى بي مجموعة من الدارسين المصريين ليلة وصول لكن كل واحد منهم انصرف بعد ذلك إلى حال سبيله .

أقاموا للحرية تمثالا !

هبطت بي الطائرة في مطار كيندي بمدينة نيويورك ذات يوم قائظ الحر من صيف ١٩٦٥، وكنت قد شاهدت بعيون مليئة بالدهشة مدينة نيويورك من نافذة الطائرة في السماء فألفيتها مثلما هي في صور الكارت بوستال..

ناطحات سحاب عملاقة تخترق السماء، وتمثال الحرية الشهير رابض وسط البحر معلنا أن الحرية كانت دائما مطلبا عزيزا لدى الإنسان لم يتحقق أبدا.. فأقاموا لها تمثالا !

وأي حرية تلك التي يرمز إليها ذلك التمثال وأنا في أول سير لي في شوارع نيويورك الخرسانية أشعر بوخزة في ظهري فالتفت مذعورا، فإذا بأحد الشبان من الأمريكان وقد شهر في ظهري مطواة حادة وهو يطلب مني أن أفرغ ما في جيبي وأخلع ساعتي! عندئذ ودون أن أنبس ببنت شفة أخذت أفتش في جيوبي مذعورا لأجد بضعة دولارات قليلة أعطيت بعضها

لذلك الشاب الغليظ الملامح، كما أعطيت له الساعة المتواضعة متمنيا أن يتركني في حالي.. وبالفعل اختطف الشاب الدولارات القليلة والساعة غير مصدق لهذا الاستسلام العجيب من جانبي وانصرف عدوا ونظراتي تشيعه في دهشة مختلطة بالذعر والإشفاق معا.. ولعل المدينة الخرسانية الرهيبة بكل ما تموج به من مأكل ومشرب وملبس قد أدارت لي ظهرها ولفظتني على أرصفتها غريبا جائعا مغمورا بالوحشة والاغتراب!

شعرت وأنا أقفل راجعا لأركب الطائرة المحلية المتجهة إلى مدينة واشنطون بكراهية شديدة لهذه المدينة الكبيرة- نيويورك ولتمثال الحرية وهو يخرج لسانه غيظا وكمدا لي- ولذلك الشاب العبوس الوجه الغليظ الملامح الذي سلبني بعضا من نقودي.. كما شعرت بغير قليل من التعاطف مع ذلك الشاب مع أنه قد سلبني ساعتي ونقودي وهرب لا يلوي على شيء فالفقر يفعل بالناس أشياء لا تخطر على بال.

هبطت الطائرة الصغيرة في مطار واشنطن واستقليت وغيري من الركاب أتوبيس المطار إلى وسط المدينة فوجدتها مختلفة تماما عن نيويورك.. مدينة نظيفة هادئة منعشة

الهواء.. أنيقة البيوت في غير تكلف، فهتفت في أعماقي يالها من مدينة جميلة تشبه الإسكندرية! وتنبهت إلى أن المصريين جميعا عندما يشيدون بجمال مدينة من المدن فإنهم يشبهونها بالإسكندرية! كما تنبهت إلى أنه مهما سافر المصري فهو يحمل دائما وطنه في قلبه !

في غرفة متواضعة بأحد الفنادق الرخيصة وضعت أمتعتي القليلة، ثم خرجت قاصدا مكتب البعثات لأسلم نفسي وأعلن عن وصولي. وعند باب الفندق شعرت بلفحة هواء بارد انتعشت لها روحي لكن سرعان ما أصبح هواء باردا أكثر من اللازم وأحسست برعدة البرد وسرعان ما انقلب الطقس في لحظات قليلة إلى شيء يشبه الشتاء القارس، هكذا فجأة وبلا مقدمات، فقفلت راجعا إلى غرفتي أبحث عن شيء يبعث الدفء في جسدي النحيل حينذاك لكنني اكتشفت أنني لم أحضر معي من القاهرة سوى بدلة خفيفة يتيمة ارتديتها وسرت في الطرقات النظيفة الأنيقة هابطا التل الممتد من باب الفندق إلى الشارع الرئيسي في وسط المدينة وأنا أرتعد من البرد، لكنني ظللت أقبض باستماتة على ورقة صغيرة في جيبي بها عنوان ذلك المكتب التعليمي (وكان يسمى بالمكتب الثقافي) وعندما خشيت

أن ينقضي النهار فلا أصل إلى المكتب المنشود، اكتشفت أنه أثناء سيري كنت أدور حول نفسي طوال الوقت دون أن يعينني أو يرشدني أحد ممن استوقفتهم في الطريق لأسألهم عن كيفية الوصول إلى العنوان الذي أريده، بل شعرت أن كل من صادفتهم في الطريق أثناء سيري كانوا يحثون الخطى بسرعة شديدة وبشيء غير قليل من التوتر كأن شيئا يلهب ظهورهم.. وقد بدا كل منهم مستغرقا تماما في نفسه كأنه جزيرة منعزلة تعيش وحدها في انفصال تام عن الآخرين.. وكنت كلما سألت أحدهم أشاح بوجهه ومضى مسرعا في طريقه .. وتذكرت ساعتها قصيدة الشاعر الإنجليزي الأشهر إليوت وهي قصيدة (الرجال الجوف) التي كنت أقرؤها في القاهرة دون أن أدرك بالضبط حقيقة معناها، ولأول مرة أشعر بأبيات القصيدة وكأنها تصف تماما هذا الجمع الحاشد من الناس المسرعين في خطاهم وهم يدقون بكعوب أحذيتهم الحادة شوارع المدينة الأنيقة التي كان رذاذ خفيف من المطر قد بدأ يبللها.. وترددت في رأسي أبيات إليوت.

وأخيرا وصلت على باب المكتب الثقافي ووجدت حارسا نوبيا عجوزا رحبت به بلكنته النوبية المحببة فشعرت بدفء الدنيا

بعد أن كان شعوري بالغربة والاغـتراب قد بـدأ يثقل صـدري.. وصعـدت بخطوات نشـيطة فرحـة مستبشـرة درجـا خشـبيا قصيرا إلى مكتـب المستشـار الثقـافي وكـان وقتـها هـو الدكتـور مصطفـى الشكعة أسـتاذ الأدب العربـي في جامعـة عـين شمـس وأحد الأسماء اللامعة في عالم الدراسات الأدبيـة الـذي اسـتقبلني ببشاشة أشعرتني بالكثير من الثقة في النفس وأنهى لي إجراءاتي المالية والإداريـة في لمـح البصـر ثـم اقـترح علـي أن نـنزل معـا إلى المدينـة ليشـتري لي بعـض الأشـياء الضروريـة قبـل أن أرحـل في صبـاح اليـوم التـالي حيـث مقـر دراسـتي وزال عـني كـل شـعور بالغربة أو الوحشة وأنا أضـع ذراعـي في ذراع الدكتـور الشكعة.. وبرغـم لذعـة البرد القـارس في الجو في منتصـف الصيـف فقـد شعرت بالدفء يسري في أوصالي جميعا وبـالأمل يمـلأ قلـبي. وفي أحد المحلات الكبرى التي تبيع كل شـيء وأي شـيء والـتي لم أكـن قد رأيـت مثيـلا لها في القـاهرة- اشـترى لي الدكتـور الشكعة مـن ماله الخاص (بلوفر) من الصوف حتى يدفـئ صـدري. وشـعرت ساعتها بذلك الخيط المتين من التواصـل الإنسـاني الـذي يربـط الناس في بلادنا بعضهم بالبعض، وشعرت نحو الرجـل- الـذي لم أكن قد رأيته من قبل وإن سمعت عنه كثيرا- بود جـارف كـأنني

قد رأيت مرة أخرى والدي الذي احتواه ثرى مصر قبل رحيلي إلى هذه البلاد.. أسرتني تلك الإشارة الحنون من الدكتور الشكعة، وتذكرت وأنا أقيس البلوفر في المحل الكبير صورة والدي عندما عاد إلى بيتنا في الجيزة بعد منتصف ليلة قارسة البرد فوجدته وقد وضع بطانية على كتفيه وأسنانه تصطك من البرد، شاحب الوجه وقد تمكن منه مرض القلب، وعندما ألقى علي السلام طلب مني والدي أن أجلس إليه قليلا قبل أن ينام.. وأن نتحدث.. وجلست.. وبعد لحظات من الصمت العميق فتح والدي فمه ليقول كلمات قليلة متعثرة.. أنت مسافر.. اجلس معي.. ربما لن يرى أحدنا الآخر بعد ذلك.. فعندما تعود.. لن أكون هنا..

لماذا الموت؟ وهل من الضروري أن نفارق من نحب؟ تذكرت أنني ارتميت في أحضان والدي وأردت ألا أفارقه أبدا.. أمسكت به واستماتت راحتي على ظهره كأنني أمنعه من الذهاب إلى أرض لا أعرفها.. أردت أن يبقى.. وأردت ألا أفارقه أبدا.. وأحسست بكل حنان الدنيا وبكل قسوة الدنيا! أرسلت البصر ساعتها إلى تراب مصر الذي يحتوي أبي.. وشعرت بخيوط غير مرئية

تربطني بتلك البقعة الصغيرة من تراب الوطن، ونظرت إلى الدكتور الشكعة نظرة امتنان عميق.

علمت من الدكتور الشكعة أنني مقبول أيضا للدراسة في جامعة أنديانا إلى جانب جامعة بيركلي بكاليفورنيا التي كانت مقصدي منذ غادرت مصر.. أما جامعة أنديانا فهي أيضا جامعة شهيرة من بين ما يسمونه هناك بجامعات (الرباط العاجي) وهي عشر جامعات كبرى تعتبر قمة التقدم العلمي من بين جامعات أمريكا جميعا.. وهي تقع في مدينة صغيرة في أواسط أمريكا لا يعدو عدد سكانها حينئذ الخمسة آلاف، لكنها عظيمة القيمة بتلك الجامعة التي تتوسطها، هي بلومنجتون، وعندما علمت من الدكتور الشكعة أن السفر إلى كاليفورنيا من واشنطن يستغرق نحو خمس ساعات أو أكثر بالطائرة قررت أن ألتحق بجامعة (إنديانا) لأن السفر إليها لا يستغرق أكثر من ساعتين.. وهكذا كان السبب البسيط الغريب ..

إيذانا بتحول جذري في عمري غير مجرى حياتي منذ تلك اللحظة حتى اليوم فقد قدر لي أن ألتقي بعد ذلك بعامين بزوجتي الأولى الراحلة التي جاءت هي الأخرى إلى جامعة

إنديانا للحصول على درجة الماجستير في نفس فرع دراستي.
ومن يدري ربما إذا كنت قد سافرت إلى كاليفورنيا لما التقيت بها إلى الأبد.. وكانت لي- منذ تلك الأيام- نعم الرفيق والصديق.. تزداد أواصر الحب والمودة بيننا يوما بعد يوم.. وأنجبت منها طفلين كما أنجبت طفلة من زوجتي الثانية هم الآن قرة عيني ومحط آمالي.. وتكرار عجيب غريب ماديا ومعنويا لصورتي وأنا أخطو خطواتي الأولى المتعثرة في الحياة.. فكأن الله قد أراد أن يشهدني في ثلاثتهم ومضة من معنى الخلود.

هكذا كانت أمريكا الأمس بالنسبة لي.. أما أمريكا اليوم وقد أصبحت قوة عظمى تملي شروطها بالقوة العسكرية والاقتصادية والسياسية على العالم وتحتل جزءا من وطني العربي، وتغتصب ثرواته- كما اغتصب ذلك الأمريكي القبيح الغليظ القسمات ساعتي ونقودي في شوارع نيويورك منذ أكثر من ثلاثين عاما- فإنها سوف تقف يوما أمام محكمة التاريخ التي ولا شك سوف تقول حكمها العادل.

عطر بغداد

كان الأمر مختلفا عندما وصلت - في أوائل الستينيات لدراسة الدكتوراه - إلى هذه المدينة الأمريكية الجميلة بلومنجتون.

فلم أكن قد جئت إليها من حياة منغلقة كتلك التي يعيشها الطالب الفلاح في ريف مصر عندما ينتقل فجأة إلى الجامعة في المدينة فتتفتح أمامه آفاق لم يكن يحلم بها.. وهو النموذج الذي رسمه أمين يوسف غراب في رائعته (شباب امرأة).. وإنما كنت مخلفا ورائي في القاهرة عالما صاخبا من حياة المسرح في مسرح الحكيم بالذات ومئات الصداقات، والكثير والكثير من متعة الفن ومتعة الفكر.. حياة كاملة صاخبة كنت أعيشها كل يوم بمسرح الحكيم في قلب القاهرة بعماد الدين من الصباح إلى المساء ألتقي بمئات البشر وأناقش آلاف الأفكار وتزدحم نفسي بمختلف المشاعر والأحاسيس ومتعة لا حد لها في رؤية الممثلين وهم ينطقون على المسرح بكلمات كتبتها وأنا جالس على مقاهي القاهرة.. وصداقات حفرت في نفسي أخاديد عميقة من

الود ودفء المحبة.. كل هذا تركته فجأة لأجد نفسي وحيدا في هذه المدينة الأمريكية الصغيرة وإن كان قد احتفى بي مجموعة من الدارسين المصريين ليلة وصولي لكن كل واحد منهم انصرف بعد ذلك إلى حال سبيله .

ومن بين الأصدقاء العرب الذين التصقت بهم في أيامي الأولى بمدينة (بلومنجتون) اثنان: أحدهما مصري اسمه (وفيق) وكان يدرس للدكتوراه في الأدب الإنجليزي- وهو نفس تخصصي ولهذا كان طبيعيا أن أتخذ منه صديقا- موفدا من جامعة عين شمس، والثاني عراقي اسمه الدكتور صالح جواد الطعمة أستاذ الأدب العربي بالجامعة، أما (وفيق) فقد وفد إلى هذه المدينة الأمريكية الصغيرة قبلي بسنوات ويبدو أنه لم يحقق في دراسته تقدما يذكر فأهمل الذهاب إلى الجامعة وانقطع للعلاقات العاطفية مع الطالبات الأمريكيات، ومضى يقضي أيامه متنقلا بين المقاهي في الصباح مقلدا الأمريكان في ارتداء بنطلونات الجينز الضيقة والقمصان الفاقعة فكان يبدو في هذا الزي- الذي كان أيامها جديدا غير منتشر كما هو الآن- مضحكا غريب المنظر والهيئة لا تتناسب سمرته المصرية وملامحه الفرعونية القمحية مع هذه البهرجة الأمريكية المتناهية، وفي المساء كان

يذرع شوارع المدينة بسيارته الأمريكية المتهالكة متنقلا من حفلة إلى حفلة.. أو من (بارتي) إلى (بارتي) من تلك الحفلات التي اعتاد الطلبة والطالبات الأمريكان أن يقيموها في بيوت بعضهم البعض يعبون فيها أكواب البيرة ويلتهمون سندوتشات الهامبورجر ويتكلمون كثيرا في توافه الأمور، ولا تعدم أن تجد بينهم واحدا أو اثنين غالبا ما يكون زنجيا أو هنديا يتحدث بعمق شديد في أمور الفلسفة أو السياسة.. وخلال كل ذلك يقيمون العلاقات العاطفية والجنسية العابرة في حرية تامة مجسدين تلك الروح العامة التي كانت تسود الشباب الأمريكي في تلك الأيام، وهي النزعة إلى التحرر من كل شيء والتحلل من المواضعات المحترمة للمجتمع الأمريكي تعبيرا عن سخطهم على نظام الحياة الأمريكي ومقاومتهم لذلك القهر الذي كانت تمارسه عليهم الآلة الجهنمية للإدارة الأمريكية المتورطة في حرب فيتنام (والتي تورط أبناءهم وأحفادهم الآن في حرب العراق المتوقعة) حيث يذهب الشاب الأمريكي ليموت في حرب لا معنى لها ومن أجل لا قضية ولا هدف على بعد آلاف الأميال من أرضه ووطنه.

والغريب أن (وفيق) لم يكن جزءا من كل ذلك. فلا هو أمريكي.. ولا هو مهدد بأن يقذفوا به فجأة إلى معسكرات الجيش ليحلقوا رأسه ويبعثوا به إلى فيتنام ليحارب (وراء البحار) حفاظا على كرامة أمريكا والعالم الحر!! ولا هو متمرد على نظام الحياة الأمريكي الذي يورط الفرد على عجلة الرفاهية ليقضي بقية عمره مكبلا بالديون عبدا لأقساط المنزل والسيارة والثلاجة وبقية الكماليات والمنافسة الجنونية التي تحكم المجتمع الرأسمالي.. بل هو مستمتع جدا بهذا النظام الذي أتاح له أن يشتري سيارة- ولو قديمة- بالتقسيط المريح، ويرتدي البنطلون الجينز، ويقترض على مرتب البعثة الضئيل من البنك ليشتري تليفزيونا ملونا، وحتى آراؤه في السياسة لم تكن حادة أو واضحة.. فلا هو ضد الحرب ولا هو معها.. ولا هو ضد نضال الشعوب الصغيرة ولا هو معها. ولا هو ضد الحرية والديمقراطية ولا مانعا.. فلا هو يكمل دراسته ليحصل على درجته العلمية ولا هو يترك الدراسة ويعلن فشله ويختط لنفسه طريقا آخر ليصبح شيئا، حتى ولو كان سائق تاكسي أو عاملا في محطة بنزين.. وإنما كانت كل علاقته بثورة الشباب في أمريكا في ذلك الوقت هو جانبها الجنسي الذي أتاح له ان

يقيم عشرات العلاقات مع أكبر عدد من الفتيات الأمريكيات ويفتخر أمامي بذلك !!

وكان الصديق الثاني هو العراقي صالح جواد الطعمة، كان أول لقاء لي بالدكتور صالح الطعمة في مبنى قسم دراسات الشرق الأوسط، وكان الدكتور صالح- وهو أمريكي من أصل عراقي- أحد أساتذة هذا القسم المرموقين.. نزح من العراق في شبابه.. وجاء إلى هذه البلاد طلبا للعلم والرزق معا.. ولم يستطع أن يعود إلى بلاده منذ ثورة عبد الكريم قاسم بسبب تلك التقلبات السياسية العنيفة التي خضع لها وطنه منذ أن تولى العسكر الحكم.. وتفشت الأيديولوجيات من بعثية وقومية واشتراكية وشيعية وسنية فتمزق أبناء الوطن الواحد.. وتحول العراق مثل غيره من الأوطان العربية الأخرى التي مزقها حكم العسكر أيضا إلى وطن طارد لأبنائه من الشباب الذين يتطلعون إلى الخبز الشريف والحرية.

وكان صالح جواد الطعمة من بين هؤلاء الذين هربوا من جحيم القهر والتقلبات السياسية العنيفة وفقدان الحرية. وربما رأى في شبابه صديقا له يزج به في سجن الاعتقال دون أن

يعرف له (طريق جره) – كما نقول نحن المصريين- وربما شاهد أخا له يذبح أو يسحل في وضح النهار أمام ناظري الجميع بتهمة لا يعلمها إلا الحاكم.. وربما وربما. ولكنه- بعد أن توسط به العمر ونال الجنسية الأمريكية طلبا لأمان الأيام – ظل يسير في حدائق جامعة بلومنجتون الغناء وهو يرى في كل شجرة من أشجارها الإفرنجية السامقة نخلة من نخيل العراق، ويرى في كل ثمرة من ثمارها الدانية ثمرة من تمر العراق.. وتجول عيناه السارحتان في شوارع المدينة الأمريكية الصغيرة الأنيقة فلا يرى فيها سوى عطر بغداد وسحر العراق فإذا صافحت أنفه رائحة الهامبورجر الأمريكي تخرج نفاذة من واجهات مطاعم السندوتش المنتشرة في كل مكان هناك اشتم فيها رائحة السمك المسجوف يشويه في هدوء وسكينة ذلك الساقي العراقي ذو العيون الجسورة على شواطئ دجلة والفرات.

عندما صاحت الأمريكية السمينة :

أليست مصر جزءا من الهند؟

عندما وصلت إلى مدينة أنديانا بأمريكا في أوائل الستينيات لأدرس الدكتوراه وجدت نفسي أسكن في شارع أنيق ظليل بالأشجار الباسقة التي كانت تملأ كل شبر من أرض المدينة فتحيلها إلى جنة خضراء.

لكنها كانت في وعيي في بداية أيامي هناك قفرا.. الوحدة القاتلة.

أين أنا من مصر وحياة مصر؟ وكثيرا ما كنت أتساءل لماذا أترك كل هذه الحياة الحافلة في مصر ومن أجل أي هدف؟ حتى أنني كنت أحلم عندما أنام كل ليلة بأن طائرة تقلني إلى مصر في المساء لتعيدني إلى الجامعة في الصباح! وزاد شعوري بالوحدة في تلك الأيام الأولى أن اختار لي زملائي المصريون سكنا أمريكيا هو عبارة عن شقة صغيرة من غرفة وصالة مفروشة بأثاث طلابي رخيص تتوسطها ثلاجة قديمة ضخمة في منزل مكون

من طابقين، كنت أسكن طابقه الأول أما الطابق الثاني فتسكنه المسز جانيت صاحبة المنزل، وهي عانس أمريكية شديدة القصر والسمنة كانت أيامها في العقد الخامس من عمرها ترتدي نظارات سميكة وتخفي مقدمة فستانها دائما بمريلة كتلك التي تضعها النساء أثناء غسيل الأطباق. لكن المسز جانيت لا تخلعها أبدا ليل نهار فهي في حالة تنظيف مستمر وأبدي ولا أراها إلا وهي تحمل في يدها مقشة، فتذكرني ببطلة مسرحية بيجماليون التي صاغها الفنان تمثالا هو آية في الجمال ثم تمنى على الله أن ينفخ فيه الروح فإذا بها امرأة عارية تمسك في يدها بمقشة وتمضي في تنظيف البيت بحماس شديد كأي زوجة ذهبت عنها حالة العشق الرومانسية وانخرطت في حياة البشر.

غير أن المسز جانيت صاحبة البيت لم تكن تمت إلى جمال فتاة بيجماليون بصلة.. بل كانت القبح الأبيض السمين مجسما..

وبدت لي وكأنها ولدت هكذا بالمريلة والمقشة والنظارات السميكة وكتل اللحم والشحم البيضاء وصوتها الحاد الذي يلومني دائما على كل شيء وأي شيء.. إذا تركت كسرة من

الخبز فوق الثلاجة أو إذا هي ضبطتني وقد خرجت إلى دراستي دون أن أرتب سريري أو أغسل الأطباق المتراكمة في حوض المطبخ.

فكأنما آلت على نفسها أن تعيد صياغتي من جديد فتعلمني ضروب الأدب والتحضر! وكانت تحتفظ لنفسها بمفتاح شقتي فكنت إذا انصرفت إلى دراستي في الصباح تنزل إلى الشقة وتترك لي ملاحظات قاسية تكتبها على كروت بيضاء وتلصق الكروت في كل مكان بدبابيس الرسم وفيها من اللوم والتأنيب والتوبيخ – على هنات صغيرة في نظافة المكان بلغة أمريكية ركيكة- ما يكفي لأن أتعلم الأدب طول حياتي.. وفي لحظات الصفاء النادرة التي جرى فيها حوار بيني وبين هذه السيدة كانت تسألني من أي البلاد جئت.. أمن الهند أم السند أم بلاد تركب الأفيال؟. وعندما أعلنت لها أنني من مصر سألتني وفي أي جزء من الهند تقع مصر؟

وهكذا كانت المسز جانيت نموذجا للأمريكي الصلف الذي لا يعلم من أمر الدنيا شيئا خارج بلاده.. والتي تتساوى عنده

مصر بالهند بأي بلد آخر ما دام لم تكن هذه البلاد جزءا من أمريكا!

وقررت أن أترك لها المنزل طول النهار تضع فيه من كروت التوبيخ ما تشاء وأن أختلف إلى مقهى بالشارع الرئيسي الذي يصل حرم الجامعة بحي الحجارين في جنوب المدينة- وكانت مهنة قطع الأحجار هي المهنة الرئيسية لسكان المدينة الأصليين من غير الطلبة- فقد كان وجود الطلبة في المدينة موقوتا بانتهائهم من الدراسة ثم يغادرونها كل إلى حياته- فكنت أقضي في هذا المقهى كل الوقت منذ انتهائي من دروسي بعد الظهر فلا أعود إلا في المساء. وفي المقهى الصغير واسمه (نيكس) كنت أقتات ساندوتشات الهامبورجر المحاطة بالبطاطس المحمرة تقدمها إلي الجرسونة العجوز الوحيدة هناك التي لم يتح لي أن أعرف اسمها أبدا. والطريف أنني رأيتها بعد ذلك بعشرين سنة وكأن الزمن لم يغير فيها شيئا فوجدتها امرأة نحيلة جاحظة العينين منحولة الشعر إلى درجة تقترب من الصلع، تستمد من رغبتها في الاستمرار في الحياة قوة هائلة تجعلها تقف على قدميها وتذرع المقهى وحدها ذهابا وإيابا طيلة عشرين ساعة في اليوم تقدم لزبائنها من الطلبة الفقراء المأكولات والمشروبات الخفيفة

دون كلل أو ملل.. وفي صمت عجيب وبلا تعبير يذكر على وجهها كأنها آلة متحركة وليست بشرا، وهي أيضا كانت لا تعرف من العالم إلا هذا المقهى الصغير، حتى أمريكا نفسها كانت لا تعرفها !

ولأول مرة ذقت في هذا المقهى طعم اللحم المفروم المشوي على الفحم فكانت له لذة عظمى ما أزال أتذكرها حتى الآن ولا أجد لمثيلاتها نفس الطعم في أي مقهى آخر في العالم – على كثرة أسفاري بعد ذلك إلى بلاد الدنيا – ربما لارتباط هذا الطعم المميز في ذهني بأيام الدراسة الأولى حين لم أكن أعرف كيف أطهو طعامي بنفسي، وكان هذا ألذ وأجمل طعام أسد به غائلة جوعي كل يوم إذا انتهيت من حضور دروسي في الظهيرة. وأيضا لأهرب من العودة إلى منزل المسز جانيت ومن مواجهة غضبها بسبب عدم اعتنائي بنظافة المكان.

وبعد هذه الأيام الأولى بدأت أشعر بالقرب من بعض المصريين الذين يعيشون ويدرسون في هذه المدينة، فاختصصت بصداقة إبراهيم حمادة الذي كان يدرس الدراما موفدا من أكاديمية الفنون لقرب تخصصه من دراستي وهوايتي معا..

وقد ربطت بيننا أثناء سنين الدراسة في أمريكا صداقة عميقة تخللتها بعض الشوائب الصغيرة لكنني لم أكف عن إعجابي بإبراهيم حمادة وصرامته الشديدة المشوبة بروح دعابة وسخرية محببة لا يفصح عنها إلا لمن يألفه ألفة شديدة فيسقط عنه قناع الأستاذ الصارم الذي كان يحلو له دائما أن يضعه ليصبح طفلا كبيرا بريئا محبا للدنيا وملذاتها ساخرا أشد السخرية من هؤلاء الأمريكان الذين كان يكرههم أشد الكراهية ويعجب بإنجازهم العلمي أشد الإعجاب في الوقت نفسه.

وقد سارت به وبي الحياة في سنوات بلومنجتون حتى تخرجنا وحصلنا على الدكتوراه في أسبوع واحد كأوثق ما تكون العلاقة فلا يمر يوم دون أن نتزاور بل نتبادل الكتب وأطباق الطعام التي يطهوها كل منا في بيته..

وكنت- بعد أن مضت بي الشهور في البعثة- قد أصبحت ماهرا في صنع اللحم المشوي على الفحم، أما إبراهيم حمادة فقد تجلت مهارته في طهي مختلف أنواع الأسماك فكانت شلة المصريين تتندر في لهو بريء بأنني أنا (الكبابجي) أما إبراهيم

حمادة فهو (السماك) في هذه المدينة وإذا كانت السبل قد تفرقت بنا بعد العودة من البعثة لأصبح أستاذا بكلية الآداب وإبراهيم حمادة أستاذا مرموقا بأكاديمية الفنون ثم عميدا لأحد معاهدها ونائبا لرئيسها ومسئولا ثقافيا كبيرا بوزارة الثقافة، فإن الود القديم لم ينقطع بيننا قط كلما تلاقينا وطفقنا نتذكر أيامنا البريئة في بلومنجتون. وحنيننا الدفين معا إلى الوطن حين كنا نذرع معا في هدأة المساء شارع الجامعة إلى الميدان الصغير الذي يتوسط المدينة..

وما أزال أذكر بيتا من قصيدة أنشأها إبراهيم ذات ليلة صيفية دافئة ذكرتنا معا بنسمات مصر الحنون قال فيه: (هذه النسمة السمراء في تحنانها.. تحمل أنفاس الوطن!).

مصر جزء من الهند !

وجدت نفسي أسكن في شارع أنيق ظليل بالأشجار الباسقة التي كانت تملأ كل شبر من أرض المدينة الأمريكية (بلومنجتون) فتحيلها إلى جنة خضراء بعد أن كنت أسكن في أحد شوارع الجيزة الضيقة المليئة دائما بطفح المجاري ورائحة الطبيخ.

لكن هذه المدينة الجميلة كانت في وعيي في بداية أيامي مجرد مكان يبعث على الوحدة القاتلة كأنه صحراء جرداء. فأين أنا من مصر وحياة مصر التي حفلت فيها أيامي بالأحبة والأصدقاء وليالي المسرح والفن والمغامرات؟! وكثيرا ما كنت أتساءل في نفسي: لماذا أترك كل هذه الحياة الحافلة في مصر ومن أجل أي هدف؟. حتى أنني كنت أحلم عندما أنام كل ليلة بأن طائرة تقلني إلى مصر في المساء وتعيدني إلى الجامعة في أمريكا في الصباح، وزاد من شعوري بالوحدة في تلك الأيام الأولى أن أختار لي زملائي من المصريين سكنا أمريكيا هو عبارة عن شقة صغيرة من غرفة وصالة مفروشة بأثاث طلابي رخيص

تتوسطها ثلاجة قديمة ضخمة في منزل مكون من طابقين، كنت أسكن طابقه الأول، أما الطابق الثاني فكانت تسكنه المسز جانيت صاحبة المنزل، وهي عانس أمريكية شديدة القصر والسمنة والبياض، كانت أيامها في العقد الخامس من عمرها، وكانت ترتدي نظارة سميكة وتخفي مقدمة فستانها دائما بمريلة من تلك التي تضعها النساء أثناء غسيل الأطباق، لكن المسز جانيت لا تخلعها أبدا ليل نهار فهي في حالة تنظيف مستمر وأبدي.. ولا أراها إلا وهي تحمل في يديها مقشة، فتذكرني ببطلة مسرحية بيجماليون التي صاغها الفنان تمثالا هو آية في الجمال ثم تمنى من الله أن ينفخ فيه الروح فإذا بها امرأة عادية جدا تمسك في يدها بمقشة وتمضي في تنظيف البيت بحماس شديد كأي زوجة ذهبت عنها حالة العشق الرومانسية وانخرطت في حياة البشر اليومية العارية من كل مشاعر رقيقة أو خيال خلاق.

غير أن المسز جانيت صاحبة البيت لم تكن تمت إلى جمال فتاة بيجماليون بصلة.. بل كانت القبح الأبيض السمين مجسما.. ولم أكن وبالطبع- قد صغتها امرأة جميلة ثم ذهب عنها الشعر والسحر كما حدث مع بيجماليون، وإنما بدت لي

وكأنها ولدت هكذا بالمريلة والمقشة والنظارة السميكة وكتل اللحم والشحم البيضاء وصوتها الحاد الذي يلومني دائما على كل شيء وأي شيء. فكانت تلومني إذا تركت كسرة من الخبز فوق الثلاجة أو إذا ضبطتني وقد خرجت إلى دراستي دون أن أرتب سريري أو أغسل الأطباق المتراكمة في حوض المطبخ.. فكأنما آلت على نفسها أن تعيد صياغتي من جديد فتعلمني ضروب الأدب والتحضر! وكانت تحتفظ لنفسها بمفتاح لشقتي فإذا ما انصرفت إلى دراستي في الصباح تنزل إلى الشقة وتترك لي ملاحظات قاسية تكتبها على كروت بيضاء وتلصق الكروت في كل مكان بدبابيس الرسم وفيها من اللوم والتأنيب والتوبيخ على هنات صغيرة في نظافة المكان بلغة أمريكية ركيكة ما يكفي لأن أتعلم الأدب طول حياتي.. وفي لحظات الصفاء النادرة التي جرى فيها حوار بيني وبين هذه السيدة كانت تسألني من أي البلاد جئت.. أمن الهند أم السند أم بلاد تركب الأفيال؟ وعندما أعلنت لها أنني من مصر سألتني في أي جزء من الهند تقع مصر؟ وهكذا كانت المسز جانيت نموذجا للأمريكي الصلف الذي لا يعلم من أمر الدنيا شيئا خارج بلاده والتي

تتساوى عنده مصر بالهند بأي بلد آخر طالما لم تكن هذه البلاد جزءا من أمريكا!

وقررت أن أترك لها المنزل طول النهار تضع فيه كروت التوبيخ كما تشاء وأن أختلف إلى مقهى بالشارع الرئيسي الذي يصل حرم الجامعة بحي الحجارين جنوب المدينة- وكانت مهنة قطع الأحجار هي المهنة الرئيسية لسكان المدينة الأصليين من غير الطلبة- فقد كان وجود الطلبة في المدينة موقوتا بانتهائهم من الدراسة ثم يغادرها كل إلى حياته- فكنت أقضي في هذا المقهى طيلة الفترة منذ انتهائي من دروسي بعد الظهر فلا أعود إلا في المساء.. وفي المقهى الصغير واسمه (ميكس) كنت أقتات ساندوتشات الهامبورجر المحاطة بالبطاطس المحمرة تقدمه لي الجرسونة العجوز الوحيدة هناك التي لم يتح لي أن أعرف اسمها أبدا وحينما رأيتها بعد ذلك بعشرين سنة كانت كما هي. وكأن الزمن لم يغير فيها شيئا، امرأة نحيلة جاحظة العينين منحولة الشعر إلى درجة تقترب من الصلع تستمد من رغبتها في الاستمرار في الحياة قوة هائلة تجعلها تقف على قدميها وتذرع المقهى وحدها ذهابا وإيابا طيلة عشرين ساعة في اليوم وتقدم لزبائنها من الطلبة الفقراء المأكولات والمشروبات الخفيفة دون

كلل أو ملل في صمت عجيب وبلا تعبير يذكر على وجهها كأنها آلة متحركة وليست بشرا.

ولأول مرة ذقت في هذا المقهى طعم اللحم المفروم المشوي على الفحم الذي يسمونه بالهامبورجر، وأخذت أضحك في داخلي إذ أدركت أن هذا (الهامبورجر) ليس سوى نوع من (الكفتة) وأن (الكفتة) هي اختراع شرقي صميم ولكن عندما أصبح هامبورجر أخذنا نعامله بكل احترام وتوقير على أنه من نتاج القوة الأمريكية العظمى، أما الكفتة الشرقية الغلبانة فتوارت في بلادنا لتصبح درجة ثانية من درجات أكل اللحم بعد الكباب .. وكان لهذه الكفتة الأمريكية لذة عظمى مازلت أتذكرها حتى الآن ولا أجد لمثيلاتها نفس الطعم في أي مقهى آخر في العالم- على كثرة أسفاري بعد ذلك إلى بلاد الدنيا- وربما ارتبط هذا الطعم المميز في ذهني بأيام الدراسة الأولى حيث لم أكن أعرف كيف أطهو طعامي بنفسي، وكان هذا ألذ وأجمل طعام أسد به غائلة جوعي كل يوم إذا انتهيت من حضور دروسي في الظهيرة، وأيضا لأهرب من العودة إلى منزل المسز جانيت ومن مواجهة غضبها بسبب عدم اعتنائي بنظافة

المكان، وأذكر دائما أنه برغم كل شيء فنحن الذين اخترعنا (الكفتة) حتى لو سموها في العولمة هامبورجر!

وإننا نبخس أنفسنا وحضارتنا حقها حتى ولو كان الأمر يتعلق بمجال حيوي من مجالات الأطعمة الشرقية وهو (الكفتة) .

سعد اليتيم

بعد هذه الأيام الأولى من بعثتي إلى أمريكا بدأت أشعر بالقرب من بعض المصريين الذين يعيشون ويدرسون في مدينة بلومنجتون، ومعظمهم كانوا يدرسون الاقتصاد وإدارة الأعمال واختصصت بصداقة إبراهيم حمادة الذي كان يدرس الدراما موفدا من أكاديمية الفنون لقرب تخصصه من دراستي وهوايتي معا.

وقد ربطت بيننا أثناء سنى الدراسة صداقة عميقة تخللتها بعض الشوائب الصغيرة لكنني لم أكف عن إعجابي بإبراهيم حمادة وصرامته الشديدة المشوبة بروح دعابة وسخرية محببة لا يفصح عنها إلا لمن يألفه ألفة شديدة فيسقط عن نفسه قناع الأستاذ الصارم- الذي كان يحلو له دائما أن يضعه- ويصبح طفلا كبيرا بريئا محبا للدنيا وملذاتها ساخرا أشد السخرية من هؤلاء الأمريكان الذين كان يكرههم أشد الكراهية ويعجب بإنجازهم أشد الإعجاب في نفس الوقت.

وقد سارت بنا الحياة في سنوات بلومنجتون حتى تخرجنا وحصلنا على الدكتوراه في أسبوع واحد كأوثق ما تكون العلاقة فلم يمر يوم دون أن نتزاور بل ونتبادل الكتب وأطباق الطعام.. التي يطهوها كل منا في بيته وكنت- بعد أن مضت بي شهور البعثة- قد أصبحت ماهرا في صنع اللحم المشوي على الفحم، أما إبراهيم حمادة فقد تجلت مهارته في طهي مختلف أنواع الأسماك فكانت شلة المصريين تتندر في لهو بريء بأنني (الكبابجي) أما إبراهيم حمادة فهو (السماك) في هذه المدينة.

وتكونت لي مع الأيام شلة من الأصدقاء المصريين على رأسهم إبراهيم حمادة ومن بينهم (و ف) وكان يدرس الدكتوراه في الأدب الإنجليزي- وهو نفس تخصصي ولهذا كان طبيعيا أن أتخذ منه صديقا- وكان موفدا من جامعة عين شمس .

وكان (و ف) قد وفد إلى هذه المدينة الأمريكية الصغيرة قبلي بسنوات ويبدو أنه لم يحقق في دراسته تقدما يذكر فأهمل الذهاب إلى الجامعة، وانقطع للعلاقات العاطفية مع الطالبات الأمريكيات، ومضى يقضي أيامه متنقلا بين المقاهي في الصباح مقلدا الأمريكان في ارتداء بنطلون (الجينز) الضيقة

والقمصان الفاقعة فكأنــه كـان يتنبـأ بمظـاهر العولمـة قبـل حدوثها وكان يبدو في هذا الـزي- الـذي كـان أيامـها جديـدا غـير منتشر كمـا هـو الآن- مضحكا غريـب المنظـر والهيئـة ولم تكـن تتناسب سمرته المصرية وملامحه الفرعونية القمحية مع هذه البنطلونات الأمريكية المحزقـة وفي المساء يـذرع شوارع المدينـة بسيارته الأمريكية المتهاكلة متنقلا من حفلة إلى حفلة.. أو من (بـارتي) إلى (بـارتي) مـن تلـك الحفـلات الـتي اعتـاد الطلبـة والطالبـات الأمريكــان أن يقيموهـا في بيــوت بعضـهم البعـض يعبئون فيـها أكـواب البيرة ويلتـهمون سندوتشات الهامبورجر ويتكلمون كثيرا في توافه الأمور ، ولا تعدم أن تجد بينهم واحـدا أو اثنين غالبا ما يكون أجنبيا أو هنديا يتحدث بعمق شـديد في أمـور الفلسـفة أو السياسـة.. وخـلال كـل ذلـك كـانوا يقيمـون العلاقات العاطفية العابرة في حرية تامة مجسـدين تلـك الـروح العامة التي كانت تسود الشـباب الأمريكي في تلك الأيـام.. وهـي النزعة إلى التحلـل مـن المواضعـات المحترمـة للمجتمـع الأمريكـي تعبـيرا عـن سـخطهم علـى نظـام الحيـاة الأمريكـي ومقاومتـهم لذلك القهر الذي كـانت تمارسـه عليـهم الآلـة الجهنميـة لـلإدارة الأمريكيــة المتورطـة في حـرب فيتنـام حيـث يذهـب الشـاب

الأمريكي ليموت في حرب لا معنى لها ومن أجل لا قضية ولا هدف على بعد آلاف الأميال من أرضه ووطنه تماما كما يحدث الآن مع شباب أمريكا الذين يبعثونهم دون إرادتهم غالبا إلى العراق ليموتوا في زهرتهم هناك، دون أن يكون لديهم دافع وطني حقيقي لهذه الحرب التي لا تعني بالنسبة إليهم شيئا على المستوى الشخصي.

والغريب أن (و ف) لم يكن جزءا من كل ذلك .. فلا هو أمريكي.. ولا هو مهدد بأن يقذفوا به فجأة في معسكرات الجيش ليحلقوا رأسه ويبعثوا به إلى فيتنام ليحارب (الشيوعيين) حفاظا على كرامة أمريكا وزعامتها بما كانوا يسمونه بالعالم الحر، ولا هو متمرد على نظام الحياة الأمريكية الذي يورط الفرد في عجلة الرفاهية ليقضي بقية عمره مكبلا بالديون عبدا لأقساط المنزل والسيارة والثلاجة وبقية الكماليات والمنافسة الجنونية التي تحكم المجتمع الرأسمالي.. لكنه كان مستمتعا جدا بهذا النظام الذي أتاح له أن يشتري سيارة- ولو قديمة- بالتقسيط المريح، ويرتدي البنطلون (الجينز) وأن يقترض على مرتب البعثة الضئيل من البنك ليشتري تليفزيونا ملونا. وحتى آراؤه في السياسة لم تكن جادة أو

واضحة.. فلا هو ضد حرب فيتنام ولا هو معها.. ولا هو مع أسرة كيندي وزعيمها- وقتها- روبرت ضد انتخاب نيكسون ولا معها.. ولا هو أي شيء بالنسبة لأي شيء.. وحتى موقفه من الدراسة كان مائعا.. فلا هو يكمل دراسته ليحصل على درجته العلمية ولا هو يترك الدراسة ويعلن فشله ويختط لنفسه طريقا آخر ليصبح شيئا، حتى ولو كان سائق تاكسي أو عاملا في محطة بنزين.. وإنما كانت كل علاقته بثورة الشباب هو جانبها الجنسي الذي أتاح له أن يقيم عشرات العلاقات مع أكبر عدد من الفتيات الأمريكيات، ويفاخر أمامي بذلك!

وكان من بين من عرفتهم أيضا في هذه المدينة الأمريكية الصغيرة وديع جويدة وهو أستاذ فذ من أساتذة الأدب واللغة كما يعتبر عقلية موسوعية جبارة إذ كان يترأس قسم دراسات *الشرق الأوسط في ذلك الوقت- أواسط الستينيات- وهو من أصل* عراقي ولكنه أبدا لم يتخل عن دمه العربي الذي يجري ساخنا في عروقه مهما طالت به سنوات الغربة منذ أن نزح من أرض الرافدين وهو شاب يافع حتى أشرف- في ذلك الوقت- على الستين- كان لا يأبه بالمدينة ولا بساكنيها ولا يألف أساتذة جامعتها من الأمريكان، والأمريكان من أصول أوروبية.. إنما

كان يغلق أبواب نفسه في عالم خاص به من كتب التراث العربي القديم والعلم العربي القديم كأنه لا يريد أن يرى من هذا العالم سوى أصالة العرب وتفوق العرب وعبقرية العرب التي كانت يوما سحيقا من أيام الزمان لكنها اختفت لتعيش في وجدانه وتملك عليه روحه أبد الزمان. وفي المساء عندما كان يترك مكتبه بعد أن يغرق طيلة اليوم في كتب التراث، وفي تعليم ذلك لتلاميذه، كانت متعته الكبرى أن يقف في مطبخ منزله الأمريكي الأنيق في ضواحي المدينة ليتفنن في طبخ المأكولات الشرقية ولا يكل أبدا من الحديث الباسم في تؤدة ووقار عن مباهج الأكل العربي.

وكان من بين من عرفتهم جورج سعادة المسيحي اللبناني الأصل الذي بهر بالحضارة الغربية ورأى القبح في كل ما هو عربي، فنزح *إلى أمريكا ليدرس بها ويعمل أستاذا* للعلوم السياسية بجامعة أنديانا ويعجب أشد الإعجاب بما فيها ومن فيها كأنها دنيا الخلاص تولد أمام عينيه عند مشرق كل صباح.. وآثر أن ينسى متعمدا لغته العربية فينطقها لبنانية متكسرة إذا حتمت الظروف وفي تلعثم واضح وكأنه يريد أن يعطي سامعه الانطباع أنه نسى مفرداتها.. وغير ذلك كان

يؤثر دائما أن يحادث أقرانه من الأساتذة والطلبة العرب أو ممن هم من أصل عربي في إنجليزية أمريكيــة لم تصل أبدا لدرجة الإتقان تشوبها لكنة لبنانية واضحة.. ورغم أنه كان أستاذا فذا في مادتـه- كما سمعت من تلاميذه- إلا أن المقارنـــة الدائمـة في ذهنه وفي مناقشاته بين جنـة الديمقراطيـة الغربيـة وجحيم الدكتاتوريات العربيـة، الملكيـة منـها والجمهوريـة- كان تنظـر دائما لمظاهر التقدم الغربي الذي صنعته سنوات طويلة من حكم الشعب بالشعب من خلال مؤسسات ديمقراطيـة. وعندما اتخذ هذا القرار المصيري في صدر شبابه بتفوق الغـرب الساحق على الشرق وبأن الشرق لا تـأتي مـن ورائـه غـير المصائب والنكبات التي ستؤدي بالأخ هناك لأن يقتل أخاه برصاصات الكلاشنكوف (وكأنه يرى الحرب اللبنانيـة تمزق وطنـه في أفق الزمان الذي تلا تلك الأيام) وعندما اتخذ قراره هـذا تـزوج مـن أمريكيـة تكبره بأكثر مـن خمسة عشر عاما وهـو بعـد في العشرينات الأولى من عمره.. وأصرت على أن تنجب لـه أولادا وهي في أواخر الأربعينيات مثبتـة لـه بذلـك صحـة وسلامة الجسد الأنثوي الغربي فى حين تتوقف المرأة العربيــة عـن

ممارسة أنوثتها بعد الثلاثين وتتفرغ للولولة على حظها العاثر بسبب ما تطلبه تربية الأولاد من عنت وأنكاد.

لكن جورج سعادة وقد أصبح- عندما قابلته في بلومنجتون لأول مرة- في أواسط الأربعينات وجد نفسه محاصرا في حياة رتيبة وكئيبة تحكمها عجوز أمريكية تقرعه كل يوم بسبب عاداته العربية الفوضوية إذ يعن له أحيانا أن يأكل دون شوكة أو سكين كما يحلو له التدخين في غير الأماكن المخصصة لذلك.. وفي السنوات الأخيرة قابلت جورج سعادة فوجدته رجلا كهلا ملتحيا تتخلل الشعيرات البيضاء لحيته التي طالت حتى منتصف الرقبة، وعندما هتفت به فرحا: جورج ، لم يمد يده وإنما هز كتفيه بلا اكتراث قائلا: ليس الذي أمامك الآن هو جورج القديم وإنما هو (سعد اليتيم) وعرفت بعد ذلك أن جورج قد تخلى عن اسمه وهجر زوجته وأولاده.. واتخذ له اسما عربيا هو سعد اليتيم.. وطفق يكتب الشعر العربي بهذا الاسم وينشر الدواوين في بلده لبنان.

ثقافة الكلمات وثقافة الحجارة



في قصة رائعة للكاتب الروسي انطون تشيكوف يصف فيها زوجين عجوزين.. عاشا عمرهما معًا وكان الزوج الذي يعمل حوذيًا ولا يكاد يكسب ما يسد رمقه ورمق زوجته التي لم تنجب أبدًا..

يعود كل يوم إلى منزله مرهقًا ساخطًا على حظه في الحياة.. فيأخذ في تعنيف الزوجة الصامتة الصبور بسبب وبلا سبب ويفقد معها أعصابه لأقل هفوة.. وتمر السنين وهما يعيشان معًا في بؤس وتعاسة لا حدود لها.. إلى أن يأتي يوم.. وتمرض الزوجة مرضًا شديدًا.. حتى تكاد تعاني سكرات الموت.. ولأول مرة يدرك أنه كان طوال هذا العمر الذي عاشاه معًا.. يحبها! في الطريق المظلم إلى الطبيب الذي يبعد عن بيته بعشرات الأميال أخذ يحدثها طويلا عن مشاعره الدفينة وحبه الكبير.. وتعهد لها والحصان يجر العربة بسرعة مذهلة نحو ضوء القمر ألا يعود أبدا إلى ما اعتاد عليه من توجيه اللوم

والإهانات لها بسبب وبدون سبب.. وتعهد لها أنه بعد أن يتم شفاؤها وتعود إلى بيتها معه.. سوف يعيش معها ما تبقى لهما من العمر حياة جديدة وبأسلوب جديد تماما.. حياة مليئة بالحب والعطف والحنان .. سألها إن كانت تريد ذلك مثله.. وأدار رأسه لينظر إليها وهي في مقعدها ولكنه يكتشف أنها.. ماتت!

كنت أعيد قراءة هذه القصة الجميلة الحزينة وأنا أشاهد على شاشات التليفزيونات الفضائية صور الشهداء يسقطون في كل مكان على أرض فلسطين.. كانت القصة تقول ببساطة أن الفرص الهائلة لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر.. وعندما لا نقتنص الفرصة في حينها نصحو لنكتشف أن القطار قد فات! وأن شيئا فينا قد مات.. تذكرت ومع هذه القصة الحزينة الجميلة يوم كان علم فلسطين مرفرفا في بدء محادثات فندق مينا هاوس منذ نيف وثلاثين عاما.. ولم يحضر الفلسطينيون الذين يقبلون اليوم على مائدة المفاوضات بأقل بكثير مما كان معروضا عليهم يومئذ وضاعت الفرصة.. وضاعت بعدها فرص أخرى كثيرة.. ولو كانوا قد قبلوا الحضور يومها ولم يعمدوا إلى الشجب والرفض الكامل دون مناقشة عقلانية.. أو

رؤيا حقيقية لمستقبل الصراع العربي الإسرائيلي.. لأخذوا الشيء الكثير..

تتوالى الفرص الضائعة ويكاد الجسد المنهك أن يموت ثم تأتي المفاجأة الحقيقية. لا المواجهة المسلحة ولا قتل الأطفال على بشاعة كل ذلك.. المفاجأة الحقيقية كانت هي عودة الروح إلى الشعب الفلسطيني التي اكتشفنا أنها لم تغادره أبدا.. ومن ورائه كل الشعوب العربية.. وتجتمع قمة شرم الشيخ لحقن الدماء.. وتجتمع القمة العربية لتعود الروح إلى التضامن العربي بعد سنوات من التمزق والانفصام.

وبدا وكأن الفرصة لم تضع تماما ولم تفلت الأيام من بين أصابع أبناء فلسطين أو العرب كما تسربت أيام الحوذي في قصة تشيكوف فلم يعد أمامه إلا الظلام.. وبدا أن هناك بارقة بل برقا من نور يضيء بقوة على المستقبل الفلسطيني بل المستقبل العربي كله.. ولكن هذه العودة المفاجئة للروح كان لا بد أن يصاحبها خطة حقيقية.. علمية وعقلانية لرسم المستقبل واكتشاف الخطوات القادمة أرضية فكرية تقوم على الفعل الإنساني لا مجرد الصراخ.

من يرسم هذه الخطة؟! أو هذه الأرضية الفكرية التي يقوم على أساسها الفعل العربي.. من يؤصل على أرض الواقع هذه الصحوة التي تنتاب العرب الآن؟ إنها الثقافة أو المفردات الثقافية لكل شعب من الشعوب.. لقد اصطدمت في تصوري الثقافة العربية الانفعالية بالثقافة الغربية العقلانية على أرض فلسطين لينتج عنها موقف هو في أدنى درجاته شكل من أشكال الصراع بين حضارتين أو ثقافتين وليس فقط مواجهة بين السلاح والحجارة.. وإذا كان قد بدا أن الثقافة العربية سوف تخرج منتصرة من هذه المواجهة بعد أن اجتمعت كلمة العرب من ناحية، وساهم الإعلام العالمي في خلق تعاطف عميق- ولأول مرة- مع قضية فلسطين العادلة حتى عرض صورة محمد الدرة وحدها قد عصرت قلب العالم .

حينئذ بدأت فورا محاولات الفرقة والتفريق بعد عودة الروح العربية بانتهاء القمة العربية.. وخرج من يفكرون سريعا كيف يمكن تحقيق الانهيار العربي حتى لا يسمح للروح العربية بأن تعود؟! الحل هو ضرب مصر.. رأس العرب وضرب مصر بالعرب.. وضرب العرب بعضهم ببعض.

إن رفض الفلسطينيين التفاوض على أساس الورقة الثانية من كامب دافيد التي تعطيهم حق الحكم الذاتي (وهو أكبر بكثير مما هو معروض الآن)، ومحاولة ضرب العرب بعضهم بالبعض بعد عودة الروح في القمة العربية.. ومحاولة التطاول على مصر وزعيمها والنيل من إنجازه العربي التاريخي هي كلها- في تصوري- محاولات ليست عشوائية لإنهاء الصراع لصالح إسرائيل ومن يقف وراءها.. وأن يكمن وراءها فكر محدد وخطة تقوم على التخطيط العقلاني..لا العاطفي.. الدقيق.. وأزعم أن هذه الخطة توضع في إسرائيل ليشربها العرب وكأنهم صانعوها.. أو كأن هذه الانفعالات نابعة منهم هم لا من الموقف.. وهذه الخطة هي في أساسها ثقافة تواجه ثقافة.. ثقافة عدوانية عرقية تستند على الأسطورة الدينية لتحقيق مآربها في مواجهة الثقافة العربية ذات التاريخ الطويل والتي قامت طوال وجودها على مبدأ التعددية.

خذ نموذجا واحدا من هذه الحرب الثقافية التي تقوم الآن بينما أرواح الشهداء تصرخ على أرض فلسطين.. والأطفال يقتلون كل يوم برصاص الترسانة العسكرية الإسرائيلية في هذا الوقت بالذات. الثقافة العربية توحي بضرب مصر متهمة إياها

بتقديم التنازلات في سبيل تحقيق سلام مبتور يوظف أخيرا لصالح أمريكا وإسرائيل، وهو موقف انفعالي محصن يقوم على أكذوبة كبرى تسعى فقط بوحي من إسرائيل وأمريكا لإخراج مصر من حلبة الصراع لأنها الأكبر والأقوى في مواجهة ذلك فإن الثقافة العربية.. أو سمها الآن طاقة الانفعال العربي هي التي توحي بأن هناك من بين الدول العربية من حشد عدة ملايين من أفراد شعبه للزحف على إسرائيل وهو فقط ينتظر الحدود أو الأرض التي ستقفز منها على الدولة الصهيونية.. والكل يعرف تماما أنها أكذوبة كبرى.. فلا هو حشد شيئا ولا هو قادر تحت الحصار أن يفعل شيئا إلا أن يطالب..ويطالب أمريكا بالذات بفك الحصار.. والثقافة العربية أيضا أو طاقة الانفعال العربي الجامح- هي التي تعود بنا الآن إلى مواقف الستينيات فتقوم المظاهرات وهي تعبير مشروع عن الرأي إلا أنها سرعان ما تتحول إلى صراخ هستيري وتحرق الأعلام على قارعة الطرقات.. ثم يعود الجمع إلى بيوتهم وقد ارتاحت منهم الضمائر وكأنهم قد أدوا واجبهم في ساحة القتال..

وتعود من جديد نبرة الأغاني العاطفية التي سادت في الستينيات.. فيصبح نشيدنا من جديد.. على عذوبته

الشديدة في التأليف والتلحين وهو الوطن الأكبر.. وغيره من أناشيد الكفاح العربي بالكلمات.. لعبد الوهاب وأقسم إني أحصيت وأنا أشاهد نشيد وطني الأكبر وعبد الوهاب يقود به المنشدين والموسيقيين في جميع.. أقول جميع.. القنوات العربية الفضائية وغير الفضائية (الثورية) بغير استثناء عدد من قاموا بأداء النشيد بهذا الحماس متوعدين العدو بالويل والثبور.. أحصيتهم فوجدت ثلاثة منهم قد ماتوا.. وهم عبد الوهاب نفسه وعبد الحليم حافظ وفايزة أحمد أما الباقين فمنهم من تحجبت ومن أدركته الشيخوخة أو اختفى عن الأنظار.. وهم الثلاثة، فكأننا نريد أن نعود بالصراع الحضاري العربي الإسرائيلي إلى حقبة الستينيات الانفعالية والتناقض الغريب أن ذلك ينتج من خلال تكنولوجيات عالية القدرة وهي البث الفضائي.. أي أنهم يستخدمون تكنولوجيا المستقبل للتعبير عن لغة الماضي.. والمسألة ليست مجرد أغنية .. أو أوبريت أو نشيد ألهب عواطفنا في الستينيات.. ولكن المسألة هي أننا بمجرد أن رأينا دماء الشهداء تسيل على أرض فلسطين عبرنا عن التضامن العربي بنشيد من زمن الستينات.. أطلقنا مرة أخرى العنان لعواطفنا لتثور من خلال الكلمات وكما في

الستينيات فإن الكلمات.. والكلمات وحدها هي التي تشفي غليلنا وتعبر عن ثورتنا.. لنعود آخر النهار إلى بيوتنا وننام وكأننا قد أدينا ما علينا من واجب نحو الوطن !

هذا والفرق الحقيقي بين الأرضية الثقافية التي يدور عليها الصراع بيننا وبين إسرائيل.. أن الذي يجب أن يكون الآن على أرض الواقع هو ثقافة الفعل لا ثقافة الكلمات وهو بالضبط ما فعله حسني مبارك إزاء ثقافة الكلمات.. فما أسهل أن نطلق الكلمات ثم نذهب لننام ويقوم غيرنا بالفعل.. يخططون لتفرقتنا.. ويضربوننا بعضنا البعض- ثم- وبراءة الذئب في عينيه كما قال نزار.. يقتلوننا ويقتلون أطفالنا برصاصاتهم المصوبة إلى صدورنا.. لا لشيء إلا ليخنقوا في صدورنا الكلمات.. ولا حل لدينا أو أمامنا إلا أن تختفي لدينا ثقافة الكلمات لتحل محلها ثقافة الفعل.. وثقافة الفعل باختصار ثقافة نبني بها مجتمعا.. أو مجتمعات حقيقية تقوم على التقدم الحقيقي.. لا مجرد شراء سلاح بالمليارات ووضعه في المخازن مع ترك صدور أطفالنا عارية هدفا للأسلحة الأوتوماتيكية والطائرات والدبابات والمسألة ليست اكتناز سلاح.. ولكن أي فكر إنساني هو الذي يستخدم من خلاله السلاح.. ولأي قضية.. إن لدينا قضية

حقيقية أما هم فليس لديهم قضية إلا أساطير قديمة يريدون من خلالها إثبات أنهم كانوا هنا من آلاف السنين.. مع أن الذين كانوا هنا هم نحن بشهادة الواقع وشهادة الجغرافيا والتاريخ، ولكنهم نقلوا الصراع إلى صراع ثقافي وحضاري.. بين ثقافة متخلفة تقوم على العاطفة والكلمات.. وثقافة معاصرة تقوم على العلم والتكنولوجيا المتقدمة وقد نفذوا كل ذلك بدهاء شديد مثل دهاء شيلوك بطل مسرحية شكسبير الذي طالب برطل اللحم ليستقطع من صدر غريمه حتى يموت.. بدهاء شديد قرنوه بالأساطير فتعانقت عندهم الأسطورة والعلم.. أما نحن فمازالت العاطفة تعانق عندنا الكلمات لنقع في براثن من يخططون لنا أن لا نكون!

في وسط هذا الحريق الهائل الذي يجتاح الآن عالمنا العربي.. أين المثقف العربي وما هو دوره الحقيقي غير حرق الأعلام وإطلاق الأغاني والكلمات؟. أزعم أن المثقف العربي على امتداد الوطن العربي كله قد تمت مفاجأته مفاجأة تامة ومذهلة باستشهاد أطفال أبرياء.. يحملون في قلوبهم الوطن.. ويقذفون بالحجارة أمام النيران ولا يأبهون بأن يتلقوا في صدورهم البريئة وابل الرصاص.. أزعم أن المثقفين العرب من المحيط إلى الخليج

عليهم الآن أن يتخذوا موقفا عقلانيا لا انفعاليا.. والصراع الآن هو عقل الأمة العربية أمام عقول غربية تتخذ من وراء الأساطير الإسرائيلية، ومثقفو الأمة هم عقلها ولذلك فعليهم الآن قبل أي وقت مضى أن يقوموا بدورهم الحقيقي بعد أن ملئوا الدنيا ضجيجا بخلافاتهم وصراعاتهم وانتفاخ ذواتهم قد وقفوا مذهولين أمام تحرك الشارع العربي وتحرك السياسيين.. وقفوا يتفرجون على هذا وذاك.. ولم ينبس أحدهم ببنت شفة.. ولم يتخذ موقفا إلا إذا كان الموقف هو الصراخ وحرق الأعلام ولم يساهم بفكر أو رأي حقيقي.. أو حتى إبداع يرسم أمامنا طريق المستقبل . تماما كالحوذي في قصة تشيكوف الجميلة الذي ظل يندم على الماضي دون أن يرسم صورة حقيقية للمستقبل.

ذلك الحوذي الذي كان يقود عربته في الظلام.. وهو لا يدرك أن ما يحمله في الكرسي الخلفي قد مات.. ومات من زمان!!

ثقافة الفعل وثقافة الكلام !

في مسرحية (اللحظة الحرجة) ليوسف إدريس نجد الشاب سعد يتشدق طول الوقت بشعارات الكفاح والنضال وضرورة مقاومة الغزاة في بورسعيد..

ولكن والده الذي لا يعنيه أمر الوطن بقدر حرصه على حياة ولده يسجنه في غرفته وراء باب يتصور سعد أن أباه قد أغلقه عليه بالضبة والمفتاح، ويظل سعد يصرخ وراء باب الغرفة حتى يطلق والده سراحه لكي يحقق رغبته في الانضمام إلى شباب المقاومة ويحقق كل الشعارات الطنانة التي ظل ينطق بها تأكيدا لروح البطولة والفداء التي يتحلى بها، وتكون المفاجأة الكبرى حين نكتشف بعد أن يقتل أحد الجنود الإنجليز الوالد وهو يصلي في الصالة أن الباب لم يكن مقفلا لا بالضبة ولا بالمفتاح، وأن سعد كان يعرف ذلك أو على الأقل كان في مقدوره أن يفتح الباب بسهولة شديدة ويخرج.. وأن الذي احتجزه عن الخروج هو خوفه وجبنه، وأن الحقيقة المرة أن

كل ما أطلقه من شعارات الوطنية والمقاومة حتى الاستشهاد كان مجرد غطاء وخوف شديد داخله من مواجهة الموت في سبيل قضية.. أي قضية!.

وهكذا كانت اللحظة الحرجة في حياة سعد.. ابن الحضارة الشرقية التي بنيت في العصر الحديث على قوة الألفاظ لا قوة الأفعال، ثقافة تكاد تصدق أنه بمجرد أن تستخدم لفظا أو تقول شيئا فكأنه قد تحقق.. وأنه لا داعي لأي خطوة بعد ذلك. أما إذا اضطررت لاتخاذ هذه الخطوة بعد أن تكتشف أن الباب إليها كان يمكن فتحه طول الوقت تكتشف أنك قد سجنت نفسك وراء أحلامك وتهيؤاتك.. وذلك إزاء ثقافة أخرى ترى في اللفظ مجرد وصف لفعل لابد من إنجازه.. ففي ثقافة اللفظ (مثلا) يستطيع أي (شجيع) أن يقف في الطريق العام ليقول (أنا جدع).. أما في ثقافة الفعل فلا يستطع أن يدلي بهذا التصريح إلا بعد أن يقوم بعمل ما يثبت به أنه (جدع) فعلا!.

والحياة العربية المعاصرة عايشت هذه اللحظة الحرجة مثلما فعل يوسف إدريس في (اللحظة الحرجة) وهي لحظة اكتشاف أن الباب- الذي وقفت وراءه تطلق الشعارات والعبارات

الرنانة الجوفاء مطالبة بتحريرها من سجن الأنانية والفردية لم يكن أبدا مغلقا وإنه عندما حانت لحظة الفعل الحقيقي اكتشفت عجزها الكامل.. وهذا ما حدث مع صدام حسين حين خرج قبل الحرب على العراق ليعلن أن (بغداد مصممة على أن تجعل مغول العصر ينتحرون على أسوارها) وهي عبارة لو كانت قد انتقلت من نطاق الألفاظ أو حتى الأفكار إلى نطاق الأفعال لكانت مشهدا من أخطر وأخلد مشاهد التاريخ بدءا من المعجزة الخارقة التي وردت في القرآن الكريم وهي غرق فرعون وصحبه عندما انشق عنهم البحر إلى الدمار الشامل الذي أصاب الجماد والإنسان والحيوان في هيروشيما ونجازاكي تحت وطأة القنبلة الذرية التي ألقاها الأمريكان على اليابانيين. حتى المشهد الهزلي اليومي الذي كان يؤديه الصحاف وزير إعلام صدام حول (العلوج) الأمريكان والإنجليز وما يصيبهم يوميا على لسانه من هزائم وإبادة بينا الواقع يجسد شيئا آخر تماما.. كان مجرد مشهد هزلي في مسرحية موضوعها الفارق الشاسع بين القوة والفعل..وبين ألفاظه الهزلية وبين ما يتم على أرض الواقع من حسابات دقيقة وخطة يتم تنفيذها.. وكانت المأساة الحقيقية أن ما يقوله الصحاف شيء وما يجري على أرض

الواقع شيء آخر تماما.. فهل كانت ثقافة الكلمات الفارغة من أي محتوى حقيقي هي السبب الحقيقي في تخلف العرب في العصر الحديث بعد أن كانوا ينشرون العلم والمعرفة في أرجاء العالم بأسره في أزهى عصور الحضارة الإسلامية خاصة في العصر العباسي الذي كانت بغداد نفسها سيدته.. بغداد التي تتعرض اليوم للاحتلال وفوضى القيم.. وتناقض- وقريبا صراع- الأفكار والمذاهب والانتماءات العرقية إلى جانب أعمال السلب والنهب وتدمير التراث الحضاري والثقافي لبلاد الرافدين.. هذا التراث الذي كان يوما مع غيره من مظاهر التقدم العلمي والمعرفي في جميع أنحاء العالم الإسلامي بما فيه الأندلس وبغداد- وزميلاتها من العواصم الإسلامية الكبرى كالقاهرة ودمشق- كان عاملا مؤثرا في بناء اللبنات الأولى للحضارة الغربية.. وما تلا ذلك من تطور هائل وصل الآن إلى الترسانة الرهيبة من الأسلحة عالية التكنولوجيا التي تمثل بدورها وصول الإنسان إلى أعلى الدرجات في سلم الاجتهاد والمعرفة البشرية.. ألم يلتفت أحد إلى أن نفس هذه المعرفة العالية القدرة التي يمتلكها (العلوج) كما سماهم الصحاف سليل حضارة بغداد (أي سخرية وأي هزل) لها أصول عربية فيما

قدمه العرب والإسلام على وجه التحديد إلى الغرب من معارف وعلوم في الفلك والرياضيات والفلسفة وعلم الاجتماع وغيرها عبر بغداد والأندلس.

إذن ما الذي حدث في العصر الحديث؟ ومن المسئول عن هذه الهوة السحيقة في التقدم العلمي والتكنولوجي بيننا وبين الغرب؟ وهي الهوة التي سمحت للغرب أن يمتلك من أسباب المعرفة والتكنولوجيا العالية القدرة ما يجعله (فتوة العالم) يضرب من يشاء من شعوب وأمم باتت الآن مغلوبة على أمرها ليس فقط بسبب عجزها عن التصدي لهذه الآلة الجهنمية التي يمتلكها النظام العالمي بقيادة أمريكا وإنما أيضا بسبب ما يمارسه عليها بعض قادتها من أساليب للقمع وكبت الحريات والتنكيل والتصفيات الجسدية مما يتضاءل إلى جانبه أعتى لحظات التاريخ دمارا للإنسانية ولحقوق الإنسان وحريته.. ولماذا انصرف المتنبي وأبو نواس وغيرهما من عباقرة الشعر والعلم والفكر والإبداع ليحل محلهم رعاع لا يتورعون عن سلب ونهب كل شيء وأي شيء حتى فازات الورد! أين ذهب السمك المسجوف والغناء على ضفاف دجلة والفرات.. وأين المسرح العراقي الذي كان يترنم فيه الشادي كل ليلة بأنات الحنين ليوم

لا يجيء وتعتصر بصوته الرنان القلوب الجريحة التي تتطلع إلى الخلاص والحرية ..

من المسئول إذن؟.. المسئول في تصوري هو ذلك الفرق الهائل بين الكلامولوجيا والتكنولوجيا- وأنا أستعير التعبير هنا من أستاذنا الفيلسوف الراحل زكي نجيب محمود.

لقد أصبحنا في العالم المعاصر - الذي لا يرى للعلم والتكنولوجيا بديلا لتقدم الإنسان ومصدرا لقوته - نعتمد أساسا على ثقافة الكلام والألفاظ الرنانة، وهي ثقافة نشأت أساسا مع الخطاب الثوري للانقلابات العسكرية التي بدأت بثورة يوليه نفسها عام ١٩٥٢ وامتدت بعد ذلك إلى العراق وسوريا وليبيا والسودان وغيرها، وهو خطاب مليء بالتهديد والوعيد لأعداء النظام ومليء بالأحلام الوردية الأكبر من إمكانيات أي دولة- ناهيك عن دولة نامية صغرى بالمقاييس العالمية.. وكان الفعل الوحيد المصاحب لهذا الخطاب هو قمع أعداء الثورة (أو من يرى قائد الثورة بالتحديد أنهم أعداؤنا..) فيزج بهم في المعتقلات دون محاكمات أو تهم واضحة.. وأحيانا- حسب دموية النظام- يلجأ الحاكم إلى التصفيات الجسدية غير

المعلنـة. وتعلـق شـعارات الشـرعية الثورية علـى حسـاب الديموقراطية وحقـوق الإنسان حتـى تـأتي اللحظـة الحرجـة. كما حـدث في مسـرحية يوسـف إدريـس الـتي تقـدم ذكرهـا- ليكتشف النظـام أن البـاب كـان مفتوحـا طـول الوقـت أمامـه للتقدم وأن من تصور أنهم أعداء النظام قد أغلقوا عليـه البـاب- كما كان في مسرحية إدريس- حتى لا يحقق أحلامه وطموحاته كانوا مجرد وهم.. وأنه مع تلك اللحظة الحرجة قد فقد الكثير من مصداقيته وقدرته على الفعل فلم يعد يملك سوى انكساره أو دمويتـه. أمـا الـدول المحافظـة الـتي لم تدركـها الانقلابـات العسكرية فقد لجأت إلى الخطاب الديني لحماية نفسها مما سمـي بالمد الثوري.. محاولة إغلاق الباب وبناء الداخـل مـن خـلال مـا هبط عليها من السماء أو من بـاطن الأرض مـن ثـروات بترولية ومعدنيـة وغيرهـا.. وقـد نجحت في إنشـاء بنيـة أساسـية هائلـة ومـدن كاملـة مـن الرخـام والزجـاج لكنـها ظلـت مسـتوردة للتكنولوجيا- حتى في أدنى صورها- ولم تستطع أن تؤثـر بحق في القـرار السياسـي والاقتصـادي للنظـام العـالمي الجديـد فظلـت دائما مطمعا للاحتلال وللسيطرة على منابع ثرواتها البترولية

وظلت مجبرة دائما على دفع فواتير الحماقات التي يقوم بها الحكام العسكريون وآخرها حرب صدام على الكويت .

وبين الخطاب الديني الذي تبنته الدول المحافظة التي سميت (بالرجعية) وبين الانحياز إلى الشرعية الثورية دون الشرعية الدستورية في أنظمة الانقلابات العسكرية حفاظا على ما أسموه بمكتسبات الطبقات الكادحة من أبناء الشعب العامل، تم إضعاف دور مؤسسات المجتمع المدني إلى أقصى حد ممكن.. فبدون مؤسسات قوية للمجتمع المدني مثل النقابات والاتحادات والمؤسسات والجمعيات الأهلية والأحزاب المؤثرة في الشارع والتي لديها رؤية وبرامج ووجهات نظر مختلفة للإصلاح لا توجد ديموقراطية أو حرية للرأي (مهما كانت الأبواق الزاعقة) أو فرصة لتداول السلطة. كما أن المجتمع المدني هو الذي يستطيع الدفع بعجلة التقدم إلى الأمام لأنه يمتلك القدرة على تقديم البدائل والرؤى المختلفة التي تصب في نهر الصالح العام للوطن ككل لا لحاكم فرد أو تيار بعينه.. وبغياب دور المجتمع المدني وتهميش مؤسساته أو إلغائها يصبح من الصعب قيام المجتمع الديموقراطي وبالتالي يستحيل تحقيق التطور العلمي والاقتصادي الذي يقفز بالدولة- اي دولة- إلى

مصاف الدول المتقدمة. وهذا بالضبط ما حدث على الساحة العربية التي لم تستطع من خلال الأنظمة (الثورية) أو الأنظمة المحافظة تطوير وتقوية مؤسسات المجتمع المدني فكان سقوط بغداد مثلا دون أي مقاومة تذكر ثمنا لهذا الاتجاه وليس فقط للخيانة.

وكان من أهم أخطار هذه الثقافة - التي تقوم على الكلام لا الفعل- هو الإيمان بالخرافة من ناحية وجر الشعوب إلى التطرف من ناحية أخرى حتى تصبح فكرة التقدم العلمي أو الإنتاجي للمجتمع شيئا لا يأتي على قائمة اهتماماتهم أو أولوياتهم.. وبالنسبة للخرافة فقد شاع في الآونة الأخيرة الاعتقاد في السحر والشعوذة و(الأعمال) أي أن البشر يكيدون لبعضهم المكائد ويدبرون لهم الوقوع في الشر من خلال أفعال سحرية وكائنات شريرة غير مرئية.. ويذهب هؤلاء إلى أن الحياة تسير فعلا وفق ما تريده هذه القوة الشريرة وما تفعله بمصير الإنسان والفرد والمجتمع على السواء.. كما شاع على الجانب الآخر أن هناك قوى غيبية هي التي تصنع مصير البشر.. ووصل ذلك إلى أعلى دوائر الحكم في بعض البلاد العربية وكلنا سمع عن ذلك المسئول الكبير من الصف الثاني

لثورة يوليو الذي كان يهب واقفا كل بضع دقائق في الاجتماعات الرسمية رافعا يديه بالتحية لسيدنا الخضر أو للسيدة زينب عليهما رضوان الله اللذين يتخيل هو أنهما يمران وغيرهما من الأولياء بمكان الاجتماع !.

أما التطرف الديني- على مستوى الأديان كلها فأعتقد أنه السلاح القادم الذي سوف يستخدمه الاستعمار الجديد: أمريكيا كان أو تحالفيا لإخضاع الشعوب وكسر إرادتها.. إنها المؤامرة القادمة فاحذروا!!

ومن هنا نشأت هذه العقلية العربية التي تعتمد على الأساطير والخرافات مرجعا لتفسير الواقع، وعلى التطرف سبيلا للقضاء على الديموقراطية، وفرض الرأي الواحد والفكرة الواحدة المتسلطة.. وكما يتساءل الكاتب السعودي (عبد الله باجبير) في جريدة الشرق الأوسط: (هل العقلية العربية الراهنة هي العقلية المؤهلة لاستقبال تحديات الحضارة الإنسانية المعاصرة بما فيها من تعقيدات العلم الحديث والقيم الإنسانية المتغيرة والتطور المستمر لمفهوم القيم السياسية والاجتماعية في العالم المتقدم أم أن هذه العقلية مازالت تدق في

حلقة من التصور الذاتي ترفض فيها كسر الحواجز المحيطة بها وتستمرئ الركون إلى الكسل والترف، والاكتفاء باستيراد التكنولوجيا الحديثة والتمتع بها من دون أدنى محاولة لتطوير هذه التكنولوجيا وامتلاك أسرارها وبالتالي إعادة إنتاجها عربيا كما فعلت اليابان مثلا).

إن ما حدث ويحدث في العالم من تغيرات جذرية يمكنه أن يحرك هذه العقلية وينقلها نقلة نوعية إلى رحلة فكرية جديدة يمكن أن نجتاز بها ما هو قادم.. والقادم خطير.. خطير.. خطير.

العصا لمن عصى.. فاحذروا !

أخذتني الأقدار هذه المرة إلى لندن وحدي.. فكنا قد اعتدنا - أنا وهي وطفلتنا الصغيرة - منذ سنوات مرضها أن ننهي رحلة باريس الصيفية المؤلمة بإجازة قصيرة في لندن التي أحبها وأحبتها معي..

نركب القطار من المحطة في شمال باريس.. ويمضي بنا لمدة ثلاث ساعات ممتعة فوق الأرض وتحت الأرض وفي جزء من الرحلة تحت الماء في بحر المانش.. حتى يستقر بنا المقام في فندق شهير يقع بالقرب من شارع أكسفورد، اعتدنا الإقامة فيه في كل إجازة قصيرة نقضيها هناك هو فندق تشرشل.

دخلت الفندق فوجدتني تلقائيا أطلب من موظف الاستقبال أن يعطيني نفس الغرفة التي كنا نقيم فيها سنويا وهي غرفة في الدور الثامن الذي يقع فيه بهو كبير مخصص لسكان هذا الدور.. كان الوقت في المساء.. وعندما دخلت الغرفة.. لم أجد أحدا.. فوجدت نفسي أذهب إلى البهو وهناك

وللحظة خاطفة.. ربما كانت هي الفارق بين الحياة والموت.. خيل لي أنها تجلس هناك على نفس المنضدة التي اعتادت أن تجلس عليها لتشرب طبق الشوربة الساخن الذي يقدمونه في العشاء.. ورأيت طفلتنا الصغيرة تجلس مع صديقنا الكاتب الكويتي الذي كان يحبها كثيرا ويظلان يضحكان معا كطفلين ساعات طويلة، وسحبت أنا إحدى جرائد اليوم وجلست إلى المائدة أمامها.. لكني لم أقرأ.. فقد اكتشفت أنها لم تكن جالسة إلى المائدة وأن كل شيء قد انتهى!

وأدركت ساعتها أن المسافة بين الموت والحياة هي مسافة الفرق بين الحلم والمستحيل، وأنني فيما سيتلو من أيامي طالت أو قصرت سوف أعيش دائما على هذه الحافة.. حافة الحلم وحافة المستحيل..!

والمسافة بين الحلم والمستحيل هي أيضا ما يعيش فيه عالمنا العربي اليوم.. ولنبدأ الحكاية من أولها:

الفندق يحمل اسم بطل من أبطال التاريخ الإنجليزي بل والعالم المعاصر هو تشرشل.. وكان الفندق نفسه على طول تاريخه يمثل رمزا للتقاليد الإنجليزية الصارمة ولذلك فهو

جدير باسم تشرشل نفسه الذي يرمز إلى قوة إنجلترا وعراقة تقاليدها، وكان الفندق يستمد عراقته من صورة تشرشل الضخمة التي يقع عليها نظر الزائر بمجرد دخوله من الباب الأمامي بوجهه السمين وملامحه الصارمة وسيجاره الشهير.. وكنا ونحن شباب عندما نزور إنجلترا في الستينيات لنشاهد المسرح أو نطلع على أحدث الكتب والأحداث الثقافية المختلفة لا نجرؤ على الدخول إلى هذه القلعة الإنجليزية الحصينة التي تربض خلف شارع أكسفورد في شكل فندق .. ثم جاءت سنوات الحقبة البترولية واشترى أحد وزراء دول الخليج - وكان معروفا بثرائه الفاحش- الفندق بما فيه. وبالرغم من أنه لم يستطع أن يضع صورته على مدخل الفندق بجوار تشرشل إلا أنه قد نجح في أن يحوله إلى فندق عربي صرف، فمعظم زبائنه من أبناء الخليج الذين جاءوا إلى لندن خصيصا للتسوق في شارع أكسفورد وانتقلوا إلى لندن بكل عاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم بل ومأكولاتهم الخليجية المكونة من الخراف المشوية والكبسة وغيرها..

ولقرب الفندق أيضا من شارع (أيدجوير) الفسيح الذي تحول هو الآخر إلى شارع يتكلم العربية بمقاهيه التي يرتفع

فيها دخان الشيشة برائحة معسل التفاح مخترقا سماء لندن، وبمطاعمه اللبنانية والشرقية ومحلات العصير التي تبيع الشاورما والطعمية، وبمطاعمه الشرقية، وحتى (السوبر ماركت) الوحيد فيه أصبح يبيع الحلويات الشرقية وكأنه قد اقتطع من لندن جزءا خاصا للثقافة العربية بكل مفرداتها وسلوكياتها.. والعجيب أن هؤلاء السائحين من عرب الخليج الذين يحتلون مقاهي الشارع حتى الساعات الأولى من الصباح لا يقضون أوقاتهم في شيء سوى مضغ الطعام وتدخين الشيشة والحديث في توافه الأمور.

وقد اصطحبني أحد الأصدقاء ذات مرة لنجلس مع بعضهم على إحدى هذه المقاهي.. وسألت أحد الجالسين من السواح العرب ما إذا كان يعلم أن هناك لندن أخرى بها مسارح رائعة و متاحف وصالات للفنون التشكيلية؟! وهل يعرف أن هذه الأمة بها شعراء وروائيون ونقاد وجامعات ومعاهد فنية وتكنولوجية تمثل أعلى مستويات العلم الحديث؟ فلم يدرك مما أقول سوى أنه يعرف جيدا أن لندن بها مستشفيات متقدمة، وأنه شخصيا أو أيا من أقاربه عندما يمرض يحرص على أن يأتي إليها للعلاج!! وفيما عدا ذلك، فلندن بالنسبة

إليهم هي شارع أكسفورد حيث التسوق طيلة النهار وتكديس ملابس وبضائع لا يستخدمونها عادة عند العودة إلى أوطانهم، هي أيضا بالنسبة لهم قضاء الليل بطوله على مقاهي الشيشة أمام محلات العصير والشاورما إلخ.. وكأنهم لم يتنقلوا في المكان كل هذه المسافات ليشاهدوا أو يكتسبوا أية خبرة جديدة.

إن هذا المنظر المتكرر معظم أيام الصيف جعلني أيأس فعلا من كلام المثقفين حول (صراع الحضارات أم حوار الحضارات) أو حول العلاقة بين الحضارات، أو حول رغبتهم في تصحيح صورة العربي المتهم دائما أمام الرأي العام في الغرب.. لأن المسألة تتحول في فندق تشرشل العتيد وما يحيط به من شوارع كأكسفورد بمحلاته المكتظة بالبضائع الاستهلاكية وشارع إيدجوير بمقاهيه ومطاعمه إلى نوع من الانفصال الكامل عن الواقع الذي يحول هؤلاء المصيفين من العرب في لندن إلى كتلة صماء من اللاجدوى واللامبالاة فقدت الشعور بالمكان والزمان.. فتصبح لندن بالنسبة إليهم مثل شارع جامعة الدول العربية في مصر أو مثل أي شارع في عواصم بلادهم مثل اي شيء آخر.

لم تكن هذه لندن التي أعرفها.. والتي تحضر دائما في عقلي ووجداني مشاعر طازجة وأفكارا جديدة ومشاعر من التواصل الإنساني والحضاري ومتعة فنية لا حدود لها. لقد كانت لندن بالنسبة لي دائما هي ذلك المكان الذي يقع خارج هذا المربع الذي يضم فندق تشرشل وشارع أكسفورد وشارع إيدجوير. لندن التي تدهشني وتعلمني كلما رأيتها أو عشت فيها أياما هي لندن (الوست إند) حي المسارح العتيد (وكوفنت جاردن) حي المقاهي الذي تخرج منه كل الحركات الجديدة التي تحمل دائما إبداعا جديدا مدهشا في مجالات الأدب والفن والموسيقى الذي يشبه الحي اللاتيني في باريس.. لندن المتحف البريطاني (أسمى وأعظم متحف ومكتبة في العالم) والذي يساهم في التكوين العلمي والثقافي لأعظم العلماء والدارسين والأدباء والمؤرخين والسياسيين وكل من ساهم في صنع حضارة الإنسان المعاصرة من جميع أنحاء العالم.. لندن متحف الشمع ومتحف التاريخ الطبيعي، والعديد من متاحف الفن، ومعارض الفنون التشكيلية.. وأيضا لندن التقدم العلمي المذهل في الجامعات والمؤسسات الثقافية ومؤسسات البحث العلمي، والمستشفيات، والمصانع المتطورة، واستخدامات التكنولوجيا العالية.. فهل

يمكن أن يتم حوار بين شارع إيدجوير وقاطنيه أو جموع العرب المتسوقين في شارع أكسفورد ، بين كل هذا الثراء الثقافي والعلمي الذي تزدحم به لندن التي لا يعرفونها.. ولا يريدون أن يعرفوها؟

هل يمكن أن يتم أي حوار بين الخيال والإبداع والعمل الجاد المنضبط، وبين الركون إلى المقهى وشرب الشيشة وأكل لحوم الخراف وشرب العصير والتجشؤ.. وهل يمكن أن تصبح أمتنا مستوردة لكل ما تصنعه إنجلترا بعاصمتها التي تعتبر أهم العواصم الثقافية في العالم، وغيرها من العواصم العالمية الكبرى، هل يمكن أن يحدث الحوار بينهم وبين عالمنا العربي الذي ما زال يستورد كل ما يصنعونه من نتائج أبحاث وجهد وإبداع.. وما زال العرب يركبون سيارات من صنعهم ويتفرجون على تليفزيون من اختراعهم ويستخدمون أشياء أخرى تبدو صغيرة لكنها تشكل في مجموعها منظومة الحياة في المجتمعات كالمصعد الذي يقلهم إلى الأدوار العليا ولمبة الكهرباء التي تضيء ليلهم والثلاجة وجهاز البوتاجاز، وجهاز التكييف والتليفون الموضوع فيه المحمول والفاكس والكمبيوتر والبريد العادي والسريع والإلكتروني وغير ذلك من أسباب الحياة الحديثة.. لقد استلقى العرب في دعة وراحة واتكئوا على الأرائك كأنهم ينتظرون أن

تسقط في أفواههم حبات الفاكهة دون أن يفعلوا شيئا سوى انتظار الفرج الآتي من الغرب.. وبدءوا عصرا جديدا من الاجتهاد والتفسير لم يتجه إلى الاجتهاد في أمور العلم أو بناء الحضارة، وإنما في أمور الجنس وهل يجوز للمرأة إذا كان لديها كلبا ذكرا أن تخلع أمامه ملابسها كما سألت إحدى النساء مفتيا من شيوخ الروشنة منذ أيام في إحدى القنوات الفضائية العربية !

ماذا تريدون منا أن نفعل، بل ماذا تتوقعون منا أن نفعل إزاء هذه الردة التي تجتاح حياتنا العربية سواء بالركون إلى اللامبالاة وانعدام الإرادة ومحاولة تحويل حياتنا كلها إلى فعل ماض في عالم يموج اليوم بالمتغيرات الهائلة.. وفوق ذلك وبعده يتربص بنا.. عالم يخطط لنا بالفرقة والتخلف والانقسام والتقسيم والإذلال أمام قوى الاحتلال وقوى الإرهاب الذي تمارسه دولة صغيرة إزاء مواطنين عزل ومحاولة القوة العظمى أن ترفع أمامنا عصا القوة الغليظة فتصيح فينا لمن لا يتعظ بما حدث في العراق باسم (التحرير) فسوف يلقى نفس المصير من الفوضى الشاملة.. وأعمال السلب والنهب وفقدان الاستقرار والتناحر بين الأصول العرقية والدينية.. ثم الحريق الهائل والعصا لمن عصى.. فاحذروا! .

اختار أن يعود إلى وطنه !



ويقفز بي وعيي عبر السنوات إلى أيام عشتها في أمريكا أطلب العلم حيث اختارني أستاذ شهير لأدرس على يديه فنون الأدب هو (البروفيسور هورست فرنز).

ومن اسمه أدركت منذ الوهلة الأولى من لقائنا أنه ألماني الأصل، كان هورست قد نزح من ألمانيا النازية وهو لا يزال طفلا في العاشرة من عمره، وكان قد بدأ لتوه يتعلم الأسماء والأفكار والأشياء وكان يجد في لغته الألمانية- التي تفجر بها إحساسه بالعلم- تيارا دافقا من المشاعر والأفكار. لكن العالم من حوله- حينئذ- كان يموج بالكراهية والقتل، وينشر عليه الشر جناحه الأسود كأنه طير أسطوري كريه، واضطر الصبي الألماني أن ينزح مع أسرته إلى عالم جديد يتنفس فيه نسيم الحرية، ويعرف طعم الأمان.

وفي أمريكا شب الصبي الألماني ليجد نفسه مضطرا أن يتعلم لغة غير لغته.. يمارس بها أمور حياته. وكان عليه أن يقرأ بهذه

اللغة الجديدة.. يكتب بها.. يبيع ويشتري بها.. وعندما تزوج من أمريكية كان عليه أن يمارس بهذه اللغة الجديدة . فنون الحب أيضا .

وسرعان ما أصبح الصبي الألماني هورست- الذي نزح عن وطنه مهزوما فقيرا- واحدا من أساتذة الجامعات المرموقين، وكان دائما يتحاشى الحديث عن أصله الألماني، ويتحاشى أن يتحدث بلغته الألمانية الأصلية التي تفجر بها وعيه على العالم من حوله. وكان كل ما يربطه بوطنه القديم هو صورة كبيرة للممثلة الألمانية مارلين ديتريش مهداة إليه وموقعة بخط يدها.. خط متعرج طويل لكنه بدأ وكأنه يمد حبالا غير منظورة تصله بأرض الوطن.

وكان يعلق الصورة على جدار غرفة مكتبه في بيته الريفي الأنيق في تلك المدينة الأمريكية الجامعية الصغيرة.

ولم يكن في هورست فرنز ما يذكر الناس بأصله الألماني القديم- بعد أن أصبح منذ صباه مواطنا أمريكيا- سوى تلك القامة المشدودة دائما، وهذه الوسامة الواضحة في قسمات الوجه، وذلك الشعر الأصفر الغزير، والطول الفارع، والصرامة في أداء العمل، والحيوية الفائقة التي كانت تجعله يقفز من

سيارته إلى قاعات المحاضرات بالجامعة في خطوات سريعة حاسمة .

كان (البروفيسور هورست فرنز) قد اقترب من الستين عندما قابلته لأول مرة في مكتبه بالجامعة، يبدو شابا في الثلاثين وكان قد ارتضى لنفسه هذه الحياة العقلية في رحاب الجامعة الأمريكية العريقة وهذا الوطن الجديد على أرض لم يولد بها، كما أنه سعد بهذه الشهرة الواسعة التي جعلت منه رئيسا لأكثر من جمعية أدبية في أمريكا، ومحررا لأكبر المجلات العلمية والأكاديمية وأستاذا يشار إليه بالبنان.

ولم يكن الاقتراب- على هذا النحو- من البروفيسور بالشيء الهين فقد كان تلاميذه من الأمريكيين يخشونه ويحسبون لمقابلته ألف حساب فهو- رغم بشاشته ولطف معشره- صارم كحد السيف إذا أخطأ واحد منهم او أخل بواجبه، وهو لا يتردد في أن يصدر حكمه القاطع بإنهاء دراسة هذا أو ذاك لأنه لا يأخذ عمله بالقدر الكافي من الجدية. لذلك فوجئت واستولت على سعادة غامرة انخلع لها قلبي حين قابلت البروفيسور في صحن الجامعة ذات صباح خريفي ممطر ودعاني لتناول الغداء معه.. وفي بيته- كان اللقاء تحت ظلال غابة الأشجار الكثيفة التي

يكتظ بها حرم الجامعة ويرتع فيها حيوان السنجاب صاعدا الأشجار هابطا منها قارضا جذوعها في حرية تامة، كأن جسده الصغير قد تحول إلى تجسيد حي لمعنى مجرد طالما بحثت عنه الإنسانية هو (الحرية) وكان هذا الحيوان الجميل الذهبي اللون الواسع العينين، ذو الذيل الطويل الكثيف الفراء، يحدق ساعتها في البروفيسور وتلميذه الغريب وكأنه قد أدرك- ولو في لحظة خاطفة- ما بين ثلاثتهم من صلة خفية، فلقد كانت هذه الغابات التي تفترش صحن الجامعة وطنه لكنه كان يحدق دائما عبر مساحات الأرض والبحار في الهواء الذي يحمل إليه نسمة وطن آخر قديم انتزعوا منه آباءه وأجداده ليعيشوا ويتوالدوا هنا، وكان إحساس ذلك السنجاب الجميل بالغربة رائعا في ألمه .. فرغم أنه ولد هنا إلا أن دماءه الإفريقية لم تألف تلك الأشجار أبدا- ولم تتوحد أبدا مع ساكنيها حتى إذا مد أحدهم يده ليربت على ظهره الذهبي الأليف سارع إلى الاختفاء بين صفرة أوراق الشجر المتساقطة في خريف المدينة.

ذهبت مع أستاذي البروفيسور إلى منزله، وهناك في غرفة مكتبه رأيت صورة مارلين ديتريش.. ولفت البروفيسور نظره

ضاحكا إلى توقيع الممثلة بخط يدها على الصورة وأكد لي ما أعرفه وهو أنها ممثلة ألمانية !

وجاءت زوجة البروفيسور لتداعبه في هزل ممزوج بالجد- قائلة أنها تغار من مارلين ديتريش لأن البروفيسور مازال يحبها وإن كان لم يلتق بها سوى مرة واحدة عندما وقعت له على هذه الصورة الصامتة بصفته واحدا من ملايين المعجبين. وأردفت الزوجة أن الصورة المعلقة على الجدار والتي تكشف فيها الممثلة عن قدر ضئيل من ساقيها- بوصفها صاحبة أجمل ساقين كما كانوا يسمونها- تشعرها دائما أن في المنزل امرأة أخرى !

وضحكت من أعماقي ولكنني شعرت بنظرات أستاذي البروفيسور تتعلق بالصورة على جدار الحائط وعيناه الثاقبتان قد تكسرتا تحت وطأة حزن عميق بطول المسافة بين عمره والوطن .

ذات صباح وبعد سنين طويلة وكنت قد أنهيت دراستي ورحلت عن أمريكا وأصبحت أنا أيضا (بروفيسورا) في بلدي.. ومن قراءاتها علمت أن البروفيسور فرنز قد أصيب بجلطة في

المخ جعلته ينسى تماما اللغة الإنجليزية التي عاش بها طيلة هذه السنين غريبا في بلاد غريبة .

وطمأنني الصديق أن صحة (البروفيسور) العامة على خير ما يرام.. ما عدا شيئا واحدا.. هو أنه لا يتحدث الآن سوى اللغة الألمانية !

وبالرغم من الألم العميق إلا أنني شعرت بسعادة خفية كانت تمتلك قلبي، فبالرغم من أن هورست مازال يعيش في ذلك المنزل الريفي الأنيق بالمدينة الأمريكية الصغيرة- إلا أنه اختار أن يعود أخيرا إلى وطنه .

كنت رئيسا للجمهورية !

في أوائل السبعينيات كنت أعمل أستاذا مساعدا للغة الإنجليزية وآدابها في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ..

وكانت منظمة المؤتمر الإسلامي قد اختارت جدة مقرا لها . وكانت هذه المنظمة الدولية تستعين بي وببعض الزملاء الآخرين من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين في اللغة الإنجليزية في القيام بأعمال الترجمة من العربية إلى الإنجليزية والعكس . خاصة أن اللغة الإنجليزية كانت هي – ولغرابة الأمور- اللغة المشتركة بين مختلف الدول الإسلامية وأن المسلمين عندما يتحدثون إلى بعضهم البعض لا يتحدثون إلا بلغة غير لغة القرآن يتفاهمون بها. المهم كان العمل في الترجمة بالقطعة مع المنظمة مصدرا لا بأس به لزيادة الدخل خاصة أن السعودية في ذلك الوقت (قبل حرب ٧٣) لم تكن قد شهدت بعد تلك الطفرة الاقتصادية الهائلة التي نتجت بعد حرب ٧٣ .

وكانت المرتبات ما زالت ضئيلة، تتبدد كاملة مع اقتراب نهاية الشهر وتبدد معها أحلام التحويش الذي سيؤدي بالضرورة بعد خمس سنوات من الإعارة والغربة – إلى اقتناء سيارة الأحلام وشراء الشقة المنشودة (ولو حجرتين بمنافعهم في مدينة نصر)، وهكذا بعد شهر من وصولي إلى جدة وجدت نفسي أشبه الموظف الحكومي الذي يذهب إلى عمله الحكومي في الصباح.. ثم يعمل على تاكسي في المساء حتى يواجه تكاليف الحياة.. والغريب أن هذا النمط من الحياة القائمة على الانتظار الطويل حتى تتحقق الأحلام يجعل الشخص المعار مثلنا كأنه قد أعار حياته نفسها لمدة خمس سنوات إلى جهة أخرى غير الجهة التي ينتمي إليها وهي وطنه مثلما فعل فاوست في مسرحية الألماني (جوته) عندما باع روحه الأبدية مقابل سعادة وقتية، وأن عليه أن يسقط من حياته- وهي أغلى ما لديه – خمس سنوات كاملة في سبيل شقة أو سيارة أو بعض الاحتياجات المالية البسيطة.. كما أن حياته نفسها تتحول أثناء الإعارة إلى حياة مؤجلة يقوم فيها وينام على فكرة أنه بعد خمس سنوات سيبدأ الحياة وينال السعادة .

وكانت هذه الحياة المؤجلة تسير ببطء مميت وملل قاتل.. ولذلك كنت أبحث دائما عن أي لحظة تبعث لدي الشعور بالتغيير وكسر روتين الحياة حتى جاءت لحظة لم تكن لتخطر لي في الحسبان وهي لحظة اختياري كمترجم فوري لأرافق الوفد الإسلامي الذي شكلته المنظمة إلى دولة بانجول في أفريقيا حيث تعقد هناك مؤتمرا كبيرا يحضره مفتي السعودية الشيخ ابن باز (رحمه الله) والذي كان له سطوة ونفوذ ديني رهيب في ذلك الوقت، وعدد من كبار رجال الدين الإسلامي ورؤساء المؤسسات الإسلامية في مختلف الدول الإسلامية من الباكستان وحتى المغرب، وكان يرأس الوفد أمين عام المنظمة في ذلك الوقت السيد حسن التهامي.. وهو شخصية مصرية مرموقة من الصف الثاني لرجال الثورة، ويقال إن الرئيس السادات اعتمد عليه في الاتصالات السرية بإسرائيل قبل إعلانه عن مبادرة السلام بوقت طويل، فهو المهندس الحقيقي لعملية السلام !!

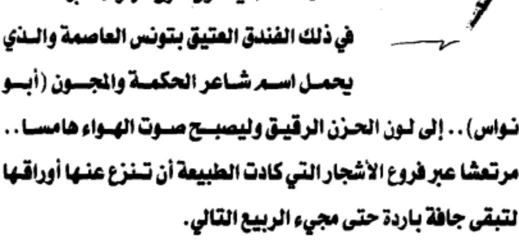
وكان التهامي – كضابط كبير سابق – يتميز بكبرياء شديد وقسوة تكاد تصل إلى حد العسكرية المتصلبة في معاملة من هم أدنى من مرتبته.. ومع اعتراف سيادته وإعجابه بمواهبي الفذة في عالم الترجمة كان يعاملني على أني مجرد عسكري نفر حالق

(زلبطة) من الذين يعملون تحت قيادة قائد جيش برتبة فريق. وكنت أضحك بيني وبين نفسي لهذه المعاملة ولا أغضب منه طالما كان ذلك يرضي غروره العسكري، وأنا أعلم تماما أنه طيب القلب جدا وشديد التدين إلى درجة الدروشة، وعندما يكاد يجرح كبريائي بمعاملته العسكرية القاسية كان يدفع إلي بالمزيد من المذكرات والوثائق الخاصة بالمنظمة لأترجمها والذي يكون من نتيجته أيضا زيادة ملحوظة في الدخل تعويضا عما لحقني منه من كلمات غير معسولة .

وقبل أن تبدأ الرحلة.. أخذت أنظر في خريطة أفريقيا بحثا عن دولة بانجول هذه – التي قيل لنا إنها دولة أفريقية إسلامية مستقلة ذات سيادة- فلم أجدها. وأخذت أياما أبحث في جميع الخرائط والأطالس وكتب الجغرافيا وحتى التاريخ فلم أجد شيئا اسمه بانجول. حتى فاجأنا السيد الأمين العام في الاجتماع الذي عقد لترتيب المؤتمر قبل السفر بأنها دولة صغيرة مساحتها حوالي عشرة آلاف كيلومتر مربع (أصغر من نصف شبرا بكثير) بجوار داكار في السنغال وأنها تعيش على تربية الجمبري في بعض الترع التي يسمونها انهارا، وأنها تعيش أيضا على أكله.. دون أي مصدر آخر للدخل القومي. أما اختيار

هـذه الدولـة العجيبـة بـالذات فلأن اقتصادهـا سـوف ينتعـش انتعاشا شديدا بسبب هذا المؤتمر الذي سـيعقد لمـدة ثلاثـة أيـام ويضخ من خلاله في الاقتصـاد الوطـني ملايـين الـدولارات الـتي ستقدمها الدول الأعضاء في المنظمة في شكل مسـاعدات، فتنتـهي هناك قصة الجمبري ويعرفون طعم اللحمة وبحبوحة العيش !

يا زمان الوصل في الأندلس !



كان وهج الشمس الصيفية قد بدأ ينكسر مع مقدم الشتاء ليتحول لون الهواء عبر النافذة في ذلك الفندق العتيق بتونس العاصمة والذي يحمل اسم شاعر الحكمة والمجون (أبو نواس).. إلى لون الحزن الرقيق وليصبح صوت الهواء هامسا.. مرتعشا عبر فروع الأشجار التي كادت الطبيعة أن تنزع عنها أوراقها لتبقى جافة باردة حتى مجيء الربيع التالي.

وكان شارع الحبيب بورقيبة الذي يمتد خلف الفندق الكبير واسعا عريضا شبيها أكبر الشبه بأوسع شوارع العالم وأكثرها أناقة وهو الشانزليزيه في باريس.. لكن الشارع العربي الواسع الذي تم إنشاؤه على غرار الشارع الفرنسي الصاخب كان ينتهي بحارة ضيقة طويلة ملتوية كخان الخليلي في القاهرة تحتوي على دكاكين صغيرة تبيع أجمل الصناعات الحرفية واليدوية.. فكأن الشارع التونسي العريض و(البازار) الشرقي الذي ينتهي إليه، هما رمز لحوار الشرق والغرب على أرض تونس التي طالما

عانت من الاستعمار لتنهض اليوم دولة فتية تسعى بكل جهدها لأن تصبح بنت عصرها تماما، فالدين هو الإسلام، لكن القانون المدني يحرم الزواج بثانية ومن يفعلها فمصيره السجن خمس سنوات، والمرأة لها حقوقها المحفوظة، وجماعات التطرف الإسلامي التي حاولت أن تطل برأسها يوما أسوة بما يحدث بالجزائر قد تم القضاء عليها نهائيا، فالدين هو الإسلام وهو لله وحده لا شريك له لكن مؤسسات المجتمع المدني هي التي تشكل صيغة المجتمع.

على قرب من شارع الحبيب بورقيبة الذي مثل حوار الشرق والغرب يوجد مقر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، التي تحمل اسما تبعيتها للجامعة العربية، لكنها بالفعل منظمة مستقلة في أنظمة عملها. واعتمادها على المساهمات المباشرة من الدول. ولأنها منظمة تعني بالثقافة (وهي عامل مشترك أعظم من الشعوب العربية)، وكذلك بالتعليم (وهو الذي قام في العالم العربي على أنظمة متشابهة بدأها المصريون في الأساس) وكذلك العلم (والعلم في حد ذاته عالمي لا تحده حدود) فهي في وسط هذا العالم العربي المضطرب المنقسم على نفسه إلى دول أصبحت تشبه دول الطوائف في الأندلس القديمة

قبل اقتراب اجتياحها من جانب الأسبان.. لتصبح هي الأمل الأخير في أن تجتمع كلمة العرب.. وتصبح هي المؤسسة العربية المشتركة المرشحة وحدها لكي تجمع كلمة العرب بعيدا عن السياسة وتغيراتها وتقلباتها..

وفي المناقشة الحامية التي تدور منذ أن أطلق المفكر الأمريكي الأشهر هنتجتون مقولته حول صراع الحضارات، وبالتحديد الصراع القادم بين الحضارة الغربية والحضارة العربية الإسلامية، والأصل في هذا النقاش الدائر الذي تحول إلى معركة حامية بين مثقفي الشرق والغرب هو الصراع بين الحضارة (الغربية) أساسا ممثلة في قطبها الأوحد أمريكا، وبين الشرق الإسلامي أو الإسلام نفسه الذي يطرح نفسه كقوة ثقافية تهدد حضارة الغرب..

وما إن أطلقت تلك الصيحة التي تقول بأن الحرب القادمة بين المعسكرين (الغربي والإسلامي) هي بالدرجة الأولى حرب ثقافية لا حربا تعتمد على السلاح أو الاقتصاد، وذلك بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وهيمنة القوة العظمى كقطب أوحد على مقدرات العالم من خلال ما أسموه بالنظام العالمي الجديد،

حتى ارتفعت صيحات أخرى تدعو إلى الحوار بين الحضارات لا الصراع. وأصبحت القضية مثل البيضة والفرخة أيهما سيأتي أولا في المرحلة القادمة. أهو الصراع المدمر الذي سيؤدي إلى هيمنة الأقوى وطمس هوية الأضعف وهي الدول النامية؟ أم الحوار الذي يقوم على الندية باعتبار أن كل أمة تنتمي إلى عالم الشرق أو عالم الغرب لها شخصيتها أو هويتها وحضارتها وتراثها وامتدادها في التاريخ الإنساني .

لكن شخصا واحدا يقبع في غرفة ليست شديدة الفخامة ولا شديدة الاتساع كمعظم مكاتب كبار المسئولين العرب. خطرت بباله فكرة لامعة يساعد بها العالم العربي والإسلامي على تجاوز فكرة (أو حتمية) الصراع، بل وتجاوز المواجهة أصلا (سواء عن طريق الصراع أو الحوار) بين الغرب الأمريكي والشرق الإسلامي..

وهذا الشخص هو المنجي أبو سنينه المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.. وليس الدكتور المنجي أبو سنينه بغريب عن الثقافة العربية أو الإسلامية، فهو وزير سابق للثقافة في بلاده تونس لمدة خمس سنوات، وكان من

أنشط وأقدر وزراء الثقافة العرب حتى تولى أمور هـذه المنظمـة العربية فجعل منها مؤسسـة حقيقيـة لتوحيـد كلمـة العـرب في مواجهة تيارات السياسة وتقلباتها.. الفكرة الـتي خطـرت ببال هذا المثقف العربي الكبير- سرعان ما بادر بتنفيذهـا علـى أرض تونس وفي قاعات فندق (أبو نواس) فهي : لمـاذا لا يجري الحـوار بيننا وبين الغرب عبر الأندلس، أو العالم المتحدث بالإسبانية في الغـرب سـواء كـانت إسـبانيا نفسـها أو أمريكـا اللاتينيـة ذات الثقافة واللغة الإسبانية ؟!

وهكذا كان مؤتمر الحوار العربـي الإيـبرو أمريكي، أي حـوار بـين الحضــارة العربيــة الإســلامية والحضــارة الإســبانية الأمريكية عبر حضارة وتاريخ مشترك بيننا هو الأندلس .

وإذا كانت الأندلس هي العامل المشترك الأعظم بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، فهي تمثل في تصور د. المنجـى أبـو سنينه صاحب هذا المؤتمـر الهام الـذي عقـد في الأسـبوع المـاضي على أرض تونس العاصمة، مدخلا أساسيا لهذا الحـوار المنشـود.. وهو حوار يكتسب أهميته القصـوى مـن أن العـرب كـانوا هنـاك فعـلا في الأنـدلـس قرونـا طويلـة وأن الإسـلام شـكل ملامــح

حضارية أساسية لهذا الجزء الهام من العالم الغربي.. وهكذا نجد حتى اليوم عشرات المراكز العلمية والبحثية في إسبانيا تخصص للدراسات الإسلامية ويقوم عليها أساتذة كبار من الإسبان، كما يوجد في المكسيك وسائر دول أمريكا اللاتينية مراكز دولية بحثية هامة تتناول العلاقة بين العالم المتحدث بالإسبانية، وخاصة أمريكا اللاتينية، والتراث الإسلامي.

كما أن طه حسين نفسه أنشأ في قلب مدريد (عاصمة إسبانيا) معهدا للدراسات العربية والإسلامية وقبل الحضارة الإسلامية التي نشأت في قلب أوروبا (الأندلس)، نجد أن الشعوب الغربية هي وريثة حضارة الإنتاج الباهر الشرقي القديم في الهلال الخصيب، كما تعتبر الحضارة المصرية القديمة هي المحرك الأساسي لنشأة الحضارة الإغريقية ثم الرومانية بعدها، والتي استندت عليهما قيام الحضارة الغربية ككل. وكانت هجرات الشعوب العربية في الشرق الأدنى ومن بغداد ومن المغرب الكبير إلى إسبانيا حتى قامت دول الإسلام في الأندلس، وفرضت دينها ولغتها وحضارتها وكانت سببا في أن تجعل الحضارة الغربية نفسها في نهاية الأمر وحتى بعد خروج ملوك الطوائف من الأندلس مزيجا راقيا من الحضارات.. وفي هذا

المناخ نمت بذور حضارية هامة ازدهرت مع ابن رشد وسبينوزا (الفيلسوف الهولندي من أصل إسباني) وشكلت بالفعل نقطة انطلاق لنهضة أوروبا الثقافية والعلمية ولاسيما انتقالها من العصر الوسيط إلى الحداثة.

وهكذا كان اختيار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومديرها النشط الدكتور المنجي أبو سنينه للحوار الإسلامي الأوروبي من خلال الحضارة الإسبانية مدخلا رائعا للبحث عن العناصر المشتركة بين الحضارتين العربية الإسلامية من ناحية، والأوروبية- الأمريكية المتحدثة بالإسبانية من ناحية أخرى، كما أن الدخول إلى الحوار مع أمريكا من خلال قارتها الجنوبية وهي أمريكا اللاتينية يشكل مدخلا غاية في الذكاء لانتفاء مبدأ الصراع بين الحضارات وهو المبدأ الذي يحاول بعض المفكرين من الغرب تأكيده بسبب محاولة القطب الغربي الأمريكي الشمالي الهيمنة على مقدرات العالم.. وإحلال مبدأ الشراكة الحضارية والاعتماد الحضاري المتبادل محل الصراع.

وهكذا تصبح الأندلس مرة أخرى هي الرمز للقاء الحضارتين الإسلامية والغربية.. وهي نقطة اللقاء التي سوف

تجمعهما مرة أخرى وتشكل أساسا للحوار على اعتبار أن كلا من الحضارتين تحتفظ في داخلها بعناصر مؤثرة من الحضارة الأخرى.. فلا تصبح القضية حوارا أو صراعا للحضارات وإنما تكاملا بينهما.

ومرحبا مرة أخرى بالأندلس بوتقة تجمعنا شرقا وغربا.

ومرحبا بك يا زمان الوصل في الأندلس!

خالتي أم شمعة والفأر المثقف !

كنت مستلقيا على سريري "السفري" (أي الذي يتسع لشخص واحد فقط) في غرفتي ببيت أمي بالجيزة قبل أن أغادره إلى الحياة الواسعة وأنا بعد في السنة الأولى من الجامعة..

كان الوقت صيفا وكان الجو حارا رطبا ولم نكن قد عرفنا رفاهية تكييف الهواء أو حتى شكل هذا الجهاز العجيب.. وكان كل ما نطمع فيه في ذلك الزمان أن يسهلها ربنا ونستطيع شراء مروحة.. ولأنني كنت قرة عين العائلة المكونة من الأب والأم وخمسة أبناء، ولأني كبيرهم، وأول من دخل منهم الجامعة.. فقد قررت العائلة تخصيص غرفة بحرية لي بمفردي وتخصيص المروحة الوحيدة في البيت لي وحدي حتى أذاكر براحتي في عز الحر، أو أقرأ المجلات وأتسلى!! وكان هذا بالضبط ما أفعله في ذلك اليوم القائظ الحر..

كنت أتسلى بقراءة مجلة (صباح الخير) التي كانت حديثة الصدور في ذلك الوقت وكنت مضطجعا على سريري (السفري)

وكان السرير ملاصقا للشباك البحري المفتوح على مصراعيه.. وكانت المروحة ترطب جسدي- النحيل جدا (حينئذ)- بالهواء العليل عندما سمعت صوت (خرفشة) على حافة الشباك الواقع على يمين سريري.. والتفت برأسي في حذر فإذا بي أرى فأرا صغيرا قد مد رقبته وأخذ ينظر إلى المجلة في اهتمام شديد وكأنه كان يقرأ معي طول هذا الوقت دون أن أشعر به.. أصابني فجأة هلع شديد من منظر الفأر الواقف على حافة الشباك بجواري وبدلا من أن أقفز من فوق السرير في الغرفة وأفر هاربا وجدت نفسي من شدة الرعب أقفز من الشباك لأهبط على أرض الشارع ليرتطم جسمي بقوة بالأرض ويصاب ببعض الرضوض البسيطة- لأن شقتنا كانت لحسن الحظ في الدور الأرضي- غير أنني اكتشفت عندما حاولت الوقوف لأعود إلى البيت أن ذراعي اليمنى تتدلى بجانبي كأنها مخلوعة عند الكوع.. وسرعان ما أحسست بألم فظيع وجريت إلى الداخل لأجد أمي في انتظاري وهي تبكي و(تولول) وتلطم خدودها.. لأن كبير أولادها وقرة عينها قد قفز من الشباك بسبب فأر!! وهو موقف يتناقض تماما مع ما كنت أمثله، كما هو مفترض، من وقار العلماء وجدية الدارس الجامعي المتعمق!

فأر!! فأر يعمل فيك كده يا ابني! يا عيني ياابني!! وأخذت تواصل الولولة.. أما أنا فبدأت صراخا متواصلا من شدة الألم.

آه.. آه.. آه.. متحولا إلى طفل يصرخ من شدة الألم وهو في صدر أمه.. وجرت أمي للداخل لتحضر قطعة من القماش لتربط به ذراعي المكسورة من عند الكوع.. وهذا ما حدث.. ولما لم يتوقف الألم صاحت أمي:

خالتك أم شمعة !!

صرخت:

اعملوا أي حاجة.. هاتوا دكتور.. ودوني المستشفى ودوني لبرسوم المجبراتي (وكان هذا المجبراتي شهيرا جدا حينئذ) اتصرفوا.. أنا أمر بلحظة رهيبة في هذه المرحلة المبكرة من حياتي يا أماه، لاحظ لغة المثقفين).

لم تفهم أمي شيئا وإنما صاحت:

خالتك أم شمعة!

وانطلقت أمي مهرولة لتحضر خالتي أم شمعة التي كانت جارة لنا وصديقة حميمة جدا لأمي- ولم تكن خالتي بالطبع وإنما كانت لأمي أعز من الأخت- وكانت سيدة سمينة سمراء في منتصف العمر، وكانت تصر على أن أناديها أنا وإخوتي بخالتي

أم شمعـة.. أمـا لـماذا هـي (أم شمعـة) فلأنـه كـان لها بنـت فارعـة الطول سمراء جميلة جمالا مصريا فادحا اسمها شمعـة.. واذكـر أن أمي وخالتي أم شمعة كانتا تصطحباني وأنا طفـل في السابعة إلى باب الخلـق حيـث يوجـد حمـام تـركـي هنـاك وأشـاهد شمعـة وأمها وهمـا يـنـزلان (المغطس) ذا المياه المغليـة ثـم يخرجـان إلى حيث (البلانـة) الـتي تجعـل مـن أجسـاد المستحمات مـن النسـاء بلورا صافيا.. وكـان هـذا المشهد بالنسبة لي ممتعـا غـير أن أمـي عندمـا لاحظت علي شـدة الاهتمـام بـالنظر إلى الطفلـة شمعـة منعتني من الذهاب معهم مـرة أخـرى إلى هـذا الحمـام الـتركي.. باعتبار أني دخلت في طور الرجولـة وأنـا بعـد في السادسـة مـن عمـري.. وأن المسألة كلها قـد أصبحت خطـرا.. بـل ودخلـت في طور المحرمات! وأذكر أنني ظللت حزينـا لاستبعادي مـن هـذه الرحلة الممتعة إلى حمام النساء التركي ببـاب الخلق حتـى كـبرت ودخلـت الجامعـة وعرفـت أن شمعـة الجميلـة قـد تزوجـت مـن سائق لوري يكبرها سنا بكثير وأنجبت منه ستة أطفال لتتحـول إلى (شـوال) مـن اللحـم السمين القبيـح.. ولم يبـق مـن جمالهـا القديم سـوى قسـمات وجهها الـبريء! أمـا خـالتي أم شمعـة فقـد تفرغت تماما بعد زواج ابنتها الوحيدة (شمعة) لممارسـة الطب

الشعبي.. أي العلاج بأعشاب العطارة و(التحويجات) والخلطات التي تركب منها أعشابا معينة على بعضها البعض لتشفي الأمراض والكسور.. وبدأ الناس في الشارع- بعد نجاحها في علاج الكثيرين منهم- يمتنعون عن الذهاب إلى الدكتور وأصبحت تستولي على اهتمامهم وتحصل على دخل محترم من ممارساتها العلاجية المختلفة.. وكانت معركة حقيقية رهيبة بين العلم أو الطب الحقيقي ممثلا في الدكتور محسن وهو طبيب امتياز يسكن مع أسرته في الشقة العليا بمنزلنا، وبين الطب الشعبي الذي تمثله أم شمعة، وكانت هذه المعركة تحسم في معظم الأحيان لمصلحة أم شمعة.. أولا لأنها كانت تجيد فن العلاج بالإيحاء.. وثانيا لأن أهلنا من البسطاء في ذلك الزمان كانوا يؤمنون بالطب الشعبي أي طب حلاق الصحة والمجبراتي و(اللبخات) المختلفة التي توضع عل الكسور والجروح فتطيب .

عادت أمي بخالتي أم شمعة ومعها (لبخة) مهولة. و(اللبخة) هي خليط من الأعشاب من صنع أم شمعة عجنتها في بعضها وسخنتها على النار حتى درجة الغليان وجاءت مقطبة الجبين وكأنها مقبلة على عملية جراحية وأمسكت بذراعي المكسورة ثم تناولت قطعة من عجينة (اللبخة) و(لطعتها) على الكسر

فوجدت نفسي أصرخ صرخة مهولة وأقفز من شدة الألم، وشعرت بأن جلدي يحترق وأن الدخان يتصاعد من كوعي فحاولت أن أتملص من قبضة أم شمعة الحديدية لكنها طرحتني أرضا واستماتت بقبضتها على ذراعي التي امتلأت باللبخة البنية ذات الرائحة النفاذة. وبعد فترة طويلة وبعد أن شعرت أن ذراعي قد احترقت تماما.. قامت خالتي أم شمعة بوضع رباط على كوعي المكسور والمغطى باللبخة.. ثم خرجت تتهادى في سمنتها المفرطة بعد أن وعدت أمي بأنني ساكون (صاغ سليم) بعد أسبوع على الأكثر!

الذي حدث أيها السادة أنه بفضل خالتي أم شمعة احترقت ذراعي تماما من عند الكوع.. وأن آثار هذا الحريق مازالت باقية حتى الآن لمن يتاح له رؤية ذراعي اليمنى.. وأن كل ذلك كان بسبب الطب الشعبي.. وخالتي أم شمعة.. والفأر المثقف .

أريد هذه البزونة

كنا جالسين نحن الثلاثة - أنا وزوجتى الأولى نهاد وصديقنا وزميل الدراسة العراقى محمد علوان - فى صالة المنزل الصغير الذى كنا نسكنه فى مدينة (بلومنجتون) الجامعية فى أوائل الستينيات ..

كنا منهمكين فى المذاكرة الجامعية حين سمعنا صوت نقر خفيف ضعيف على زجاج النافذة المطلة على الحديقة فى الدور الأرضى .. ثم تلاه صوت خفيض (ناو ناو ناو).. كنت أنا بالبيجامة وزوجتى بملابس المنزل، وهى عبارة عن بنطلون قديم وقميص شعبى رخيص، وكان محمد علوان بملابسه الكاملة : الكرافتة والبدلة وكل شىء لأنه كان شخصا تقليديا لا يحب التخلى عن هيبته أو هيئته الرسمية تحت أى ظرف من الظروف .. ورغم أننا كنا نجلس على الأرض نحن الثلاثة وكان عدد ضخم من الكتب والكراسات مفتوحا أمامنا إلا محمد علوان رفض أن يخلع حذاءه أو حتى رابطة عنقة أو أن يتخلى عن (التكتيفة) التى كان فيها ويجلس على راحته .. سمعنا

بوضوح (ناو ناو ناو) مرة أخرى ونظرت زوجتى ناحية النافذة فوجدت قطة تدور على الباب الزجاجى كأنها تريد أن تدخل .. وفى هذه اللحظة تلاحقت الأحداث سريعا ولم يعد لدى عليها أى سيطرة وبمجرد أن رأت زوجتى القطة هتفت : (حبيبتى) وهبت واقفة : أما محمد علوان برغم جسده الضخم وهيئته المهيبة كان يخاف خوفا شديدا من الحيوانات خاصة القطط والكلاب فقد ظهرت على وجهه علامات الذعر الشديد وقفز بسرعة البرق ناحية الباب ودفعه بيده دفعة هائلة بيده العراقية القوية وانطلق خارجا وعندما شعرت القطة بكل هذا العنف انطلقت تجرى من حيث أتت أما زوجتى عندما شاهدت القطة تجرى مبتعدة عن المنزل أسرعت تجرى وراءها وهى تحاول أن تناديها وتستعطفها للعودة صائحا : (بوسى ... ارجعى يا حبيبتى ... ارجعى يا بوسى ... أنا بحبك يا بوسى ... ارجعى يا حبيبتى ... إلى آخره) ولم تسمع القطة نداءات زوجتى الملتاعة ، وإنما ظلت القطة تجرى مبتعدة أكثر وأكثر بعد أن كانت قد عادت إلى المنزل بعد غياب أسبوعين وهى تائهة ، وبمجرد أن وقع نظرها على محمد علوان الضخم تصورت أن هناك عملاقا أسطوريا أو ديناصورا بريد أن ينقض عليها

ويمسك بها ويبتلعها فى جوفه ... أما أنا فعندما رأيت زوجتى تجرى فى الشارع وراء القطة وهى بملابس البيت أخذت أجرى وراءها لأعيدها إلى المنزل ... فقد كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل والشارع كان (ضلمة كحل) كما يقولون وكنت أخشى أن يراها أحد من عاطلى الشوارع وهى تجرى هكذا كالمجنونة أو يعتدى عليها ... أما محمد علوان فعندما رآنى أجرى وراء زوجتى خشى على أنا الآخر من أى مكروه فأخذ يجرى وراءى محاولا إعادتى إلى البيت .

وأصبح المنظر كالآتى : قطة تجرى فى الشارع المظلم ، وزوجتى تجرى وراء القطة فى الظلام الدامس ، أنا أجرى وراء زوجتى ، محمد علوان يجرى ورائى ... وفجأة وبعد شوط من الجرى المتواصل لمدة تزيد على ثلث ساعة ... وبعد أن أصيب ثلاثتنا بنوبة من النهجان الشديد المتواصل وقفت زوجتى تحت شجرة عالية فى مقدمة الغابة التى كانت تقع على مشارف مبانى الجامعة.. وأخذت تنظر إلى أعلى الشجرة حيث قفزت القطة .. هى (تبسبس) للقطة فى رجاء وتوسل : بس بس بس ..) كأنها تستعطفها أن تنزل بعد أن قفزت إلى أعلى فرع فى الشجرة ووقفت هناك مذعورة ، أما القطة فكانت ترد

عليها بصوت مذعور أيضا ... (ناو ناو ناو) ووجدتنى أحاول أن أساعد زوجتى فأبسبس أن أيضا للقطة ، أما محمد علوان فقد فغر فاه ووقف جامدا وقد استولت عليه دهشة شديدة متصورا أننى وزوجتى أصبحنا فى عداد المجانين .. فهاهو رجل محترم يدرس الدكتوراه مثلى وزوجته الصحفية اللامعة التى تدرس للماجستير يقفان تحت شجرة عالية فى مدينة أمريكية صغيرة وقد انهمك كل منهما فى (البسبسة) لقطة تسلقت أعلى فرع فى الشجر وأخذت تصرخ بأعلى صوتها (ناو ناو ناو) وبدأ المشهد كله كأنه موقف من مسرحية عبثية من أعمال يونسكو أبكت .

وفى سرعة البرق وإزاء هذا المشهد الغريب وصلت ثلاث سيارات بوليس أحاطت بالمكان وسلطت علينا كشافاتها ... ونزل منها ضباط مسلحون ذوو أجساد هائلة الضخامة وقد كشروا عن أنيابهم كأنهم لثلاثة من المجرمين يرتكبون جريمة شنعاء !! وبدون سلام أو كلام ! أخذوا ثلاثتنا وأداروا ظهورنا إلى جذوع ثلاث شجرات فلم يكن هناك حائط وقاموا بتفتيشنا تفتيشا دقيقا بحثا عن أسلحة .. لما لم يجدوا شيئا سألونا عن هويتنا وجنسياتنا ومهمتنا ولم لم تكن لدينا أية أوراق تثبت

أى شىء لأننا خرجنا من البيت جريا دون أن نأخذ معنا ما يثبت شخصياتنا، أشار محمد علوان بيده فى صمت إلى حيث توجد القطة فى أعلى الشجر ... والتى بمجرد أن رأت ضباط البوليس حولنا أخذت تصرخ بأعلى صوتها فى فزع شديد (ناو ناو ناو) وهنا تحولت أنظار ضباط البوليس إلى أعلى الشجرة حيث القطة ... وظهرت فى عيونهم تساؤلات تتطلب إجابات فورية .. وهنا رفعت زوجتى ذراعها على استحياء مشيرة إلى القطة وقالت بابتسامة حاولت أن تكون عذبة قدر الإمكان :

- القطة .

صاح ضابط ..

- ذى كات (القطة بالإنجليزية) .

- صحت بارتياح : ييس ، يعنى نعم !

- صاح محمد علوان : البزونة !!

- لاحظنا – أنا وزوجتى – أن كلمة البزونة باللهجة العراقية تعنى (القطة) ... ولم يكن هناك وقت لعقد دراسة مقارنة فى اللهجات العراقية ، فشرحت للضابط الحكاية كلها محاولا إفهامه بالإنجليزية الأمريكية أن زوجتى سيدة كاملة المعانى من كله ولا يعيبها إلا شىء واحد ... (عشان حظى الأسود) وهو أنها مجنونة حيوانات بكل أنواعها وأنها تكلمهم

كما كان يكلمهم الدكتـور دوليتـل الشهير ... وأنـنـى أسـتطيع أن أسيطر عليها فى أى شـىء إلا جنونـها المطلق فيمـا يتعلـق بحب الحيوانـات ... وأخبرتـه أننـا طلبـة وكنـا نذاكـر عندمـا هربـت القطـة ... والآن تحـاول زوجتـى اسـتعادتها . وفـهم الضـابط القصة وبسرعة من تدرب على أعمال الصاعقة تسلق الضـابط الشجرة وأمسك بالقطـة وأعادهـا إلى زوجتـى سعيدا ثـم أشـاروا إلينـا بـأدب أن نعـود إلى المنـزل ونـأخذ بالنـا مـن مذاكرتنـا ... وانصرفوا ... أما محمد علوان فقد نظـر إلى زوجتـى التـى علت شفتيها ابتسامة واسعة معاتبا وقال لها: (كل هذه الفضيحة مـن اجـل هـذه البزونـة) يـا شيخة كنـت قـولى واحنـا نجيـب لكـى عشرين بزونـة غيرهـا ... وهنـا صـاحت زوجتـى فـى غضـب شديد: أنا مش عايزة عشرين بزونة ... أنا عايزة البزونة دى !! وأدركت أن هذه هى العبرة من الحادثة كلـها ... فكمـا هـى الحـال مع هذه القطـة أو البزونـة فـإن الإنسان عندمـا يحب أن يختـار صديقـا أو رفيقـا للعمـر فإنـه لا يرضـى بـه بديـلا ... ولا يمكـن لأحد مهما كان أن يحل محله ... ولأن زوجتى أدركت هـذا المعنـى فهى لا تستطيع أن تسـتعيض عـن هـذه البزونـة بقطـط الدنيـا كلها !

مقالب توفيق الحكيم

كانت حياة حافلة وسعيدة كأجمل وأروع ما تكون السعادة تلك التي عشتها في أوائل الستينيات بين جنبات مسرح الحكيم أعمل بمجلة المسرح سكرتيرا للتحرير وكاتبا وناقدا، وأشارك في ندوات نادي المسرح وتجاربه المسرحية التي كانت تلقى إقبالا رائعا من الناس..

وأعقد صداقات وطيدة مع مجموعة الفنانين الشبان من أعضاء الفرقة المسرحية نقضي معا اليوم بطوله لا نطيق للمسرح فراقا، سواء كان هناك عمل نقوم به أم لا.. وعندما نجوع نرسل عم مصطفى فراش المسرح الطيب ذا الشارب الكثيف إلى محلات الكشري والفول والطعمية المجاورة ليحمل إلينا الغداء أو العشاء وللمدخنين منا سجائر البلمونت الرخيصة.. نأكل ونشرب ونضحك وندخن معا.. ونحلم معا.

وكان من أسعد لحظات عمري في تلك الأيام الرائعة يوم أن اذهب إلى توفيق الحكيم لأجري معه حديثا لمجلة المسرح، وكنت

أتفنن كل مرة في صياغة الأسئلة التي سأوجهها إلى الحكيم- الأب الروحي للمجلة والمسرح معا وهو الذي اختار للمجلة شعارها (نحو الأرفع والأنفع في الفن) وفي كل مرة كان توفيق الحكيم يضرب لي موعدا قبل إجراء الحديث حتى يستمع إلى أسئلتي قبل أن يتم بالفعل إجراء الحديث في موعد لاحق.. وعندما يحين موعد إجراء الحديث نفسه أفاجأ في كل مرة بتوفيق الحكيم وهو يضحك ضحكته المشهورة التي ينير فيها وجهه كأنه شمس الصباح وقد فتح برج مكتبه وأخرج منه حديثا مكتوبا ومعدا بعناية شديدة بأسئلة وأجوبة مختلفة لا علاقة لها في أغلب الأحوال بالأسئلة التي أجهد نفسي في إعدادها و(أخد على خاطري) لحظة أو لحظات لكن سرعان ما أنسى خيبة أملي وأندمج مع حديث الحكيم الساخر وضحكاته المجلجلة وقفشاته التي تختلط فيها السخرية البريئة مع عمق النظرة وشمولية الفكرة.

وهكذا كان الحكيم دائما يعطي لجالسه الانطباع بأن الأشياء تسير في سهولة ويسر بلا عناء يذكر لكنه في حقيقة الأمر لا يترك شيئا للصدفة وإنما يعد لكل شيء عدته في تأن ودقة شديدين كأنه مقبل في كل مرة على امتحان عسير.

وكان الحكيم يحرص دائما على أن يرفع عني الحرج الذي سببه عدم إعطائي الفرصة لإجراء حديث صحفي معه.. فيطلب لي فنجانا من القهوة وهو المعروف ببخله الشديد.. ويمضي يحكي لي الحكايات التي لا بد أن أفهم منها أن هذا الفنجان هو شيء ثمين جدا وكرم منه خارق للعادة اختصني به وحدي.

ومن هذه الحكايات أنه اعتاد أن يجلس على قهوة متاتيا الشهيرة في عماد الدين ولكي يتحاشى دفع ثمن أي مشروبات لضيوفه أبرم اتفاقا خاصا مع جرسون القهوة يصبح معه من المستحيل لأي زائر أن يشرب شيئا على حساب الحكيم. وذات مرة جاءه أحد الزوار في أمر مهم وطلب قهوة من تلقاء نفسه.. ويحكي لي الحكيم ضاحكا:

كنت أعرف النتيجة مقدما فناديت الجرسون وحسب الاتفاق ودون أن أغمز له بعيني أو أي شيء قلت له:

ويحكي الحكيم الحوار التالي الذي يدور بينه وبين الجرسون:

الحكيم : روح هات للبيه فنجان قهوة يا وله؟

الجرسون : (في تناحة) معندناش بن.

الحكيم : (ممثلا الانفعال وبلهجته الريفية المحببة) إيه دي؟ إيه يعني اللي بتقوله ده؟ فيه قهوة مفيهاش بن يا جدع إنت؟!

الجرسون : (بنفس التناحة) أهو ده اللي حصل.

وهنا يتدخل الزائر ملاحظا انفعال توفيق الحكيم محاولا تهدئته.

الضيف : هدي نفسك يا توفيق بيه صحتك.. حصل خير مش مهم القهوة.. (ثم موجها كلامه للجرسون) هات يابني كباية شاي كشري!

الجرسون : (في تناحة أكثر) لا كشري ولا دياولو! الشاي خلص من عندنا.

الحكيم : (في قمة الانفعال) قهوة مفيهاش قهوة.. ولا شاي كمان! ده كلام فارغ ده.. دنا باين علي مش حاجي هنا تاني (ويهم واقفا).

الضيف: (مشفقا) يا توفيق بيه صحتك.. ما تعملش في نفسك كده.. ده أنت مش ملك نفسك إنت ملك البلد كلها..

(للجرسون) أقولك يابني شوية عصير ليمون وخلاص!

وهنا أسقط في يد الحكيم والجرسون.. فلقد كان الاتفاق المسبق حول الشاي والقهوة فقط وهو ما اعتاد الضيوف طلبه من مشروبات.. ويستطرد الحكيم أن الجرسون استدار في صمت وأحضر كوب ليمون حرص أن يكون خفيفا جدا (معصور فيه أقل من نصف ليمونة) ووضعه على المنضدة بين الحكيم وضيفه.. وهنا يقول الحكيم: قررت ألا أجعله (يتهنى) على كوب الليمون المغتصب فأخذت أحكي له حكايات تسليه حكاية بعد حكاية.. وأخرج من حكاية أدخل في حكاية دون أن أترك له أي فرصة لالتقاط الأنفاس.. وفي هذه الأثناء كنت أشرب أنا الليمون حتى أتيت على الكوب كله في جرعتين أو ثلاثة دون أن يلاحظ وعندما فرغت من كوب الليمون بادرته.

الحكيم: إيه رأيك بقى ؟

ونظر الضيف إلى كوب الليمون وأدرك أنني غافلته وشربته عن آخره.. وانفجر كلانا في ضحك متواصل حتى كدنا نقع على الأرض من كثرة الضحك..

وهكذا كان توفيق الحكيم يحب دائما أن يرتدي قناع البخيل.. وهكذا كانت جلساته الجميلة، وهكذا كانت شخصيته الرائعة.

إيزيس في مناقصة !!



والإداريـة (لاحـظ عبـارة الشـئون الماليـة والإدارية.. أي أنـه الوحيـد الـذي لديـه الحـل والربـط في هـذه الأمـور المعقـدة) وبسـماحة الصعيدي الكريم..

وبحماس الشباب الذي وضعته الأقدار في موقع المسئولية الأولى عن الثقافة.. أصدر الوزير أمره بإعطاء الحكيم مبلغ خمسة آلاف جنيه من ميزانية الوزارة (وكان هذا المبلغ مبلغا ضخما جدا في ذلك الوقت) وهنا تململ الوكيل الأول تململا شديدا وبادر الوزير بقوله: يافندم هذا مستحيل من وجهة النظر المالية والإدارية وأعلن أنه يعتذر عن تنفيذ هذا الأمر لأن ذلك ضد جميع اللوائح والقوانين.. واقترحت على الوزير أن تقوم الوزارة بشراء إحدى مسرحياته لتعرضها على المسرح القومي مثلاً.. وليكن هذا المبلغ مقابل شراء المسرحية وليس مجرد هبة من الوزير الشاب حتى لا يجرح كرامة الحكيم.. ولتكن المسرحية هي (إيزيس).

وهنا تململ السيد الوكيل الأول مرة أخرى.. وسأله الوزير ما اعتراضه هذه المرة؟.. فأجاب أن هذا مستحيل أيضا من وجهة نظر الشئون المالية والإدارية.. فطبقا للوائح والقوانين لابد من إجراء (مناقصة) أو على الأقل (ممارسة) يتقدم لها أكثر من مؤلف لمسرحية اسمها (إيزيس) ثم تشكل لجنة لفحص (الموردين) واختيار أقلهم سعرا.. فترسي المناقصة أو الممارسة على أحدهم ونشتري منه.. وكدت أشد شعري وقلت له أمام الوزير: يا سيد.. يا سيد هذه ليست آلة كاتبة أو ماكينة تصوير أو قطعة أثاث ستشتريها وإنما هي مسرحية.. عمل إبداعي عظيم فاهم يعني إيه.. ومؤلفها هو توفيق الحكيم شخصيا وأنه لا توجد مسرحية أخرى باسم إيزيس لتتقدم إلى هذه الممارسة أو المناقصة المزعومة، ثم إنه من هو المؤلف الذي يجرؤ على أن يدخل ممارسة ضد توفيق الحكيم ليرسي عليه العطاء ويأخذ هذا المبلغ حتى لو كان قد كتب هذا أيضا مسرحية اسمها ايزيس!! وهنا تهلل وجه السيد الوكيل الأول ليقول مثل أرشيميدس: وجدتها.. وخفق قلبينا فرحا أنا والوزير.. فها هو الحل قادم.. وهنا هتف السيد الوكيل الأول: علينا أن نثبت ، هذه المسرحية هي صنف وحيد!! نظرنا إليه

في بلاهة وقد أسقط في يدينا وقلنا في نفس واحـد.. هـه؟ يعـني إيه؟!

وانطلق السيد الوكيل الأول..

يعـني حسب اللوائـح والقوانـين إذا كـانت هـذه المسـرحية (صنف وحيد) أي لا يوجد مثله في السوق.. فمـن الممكـن إجـراء ممارسة بسيطة مع توفيق الحكيم فقط ونطلب منـه أن ينـزل بالسعر قليلا ثم نرسي عليه المناقصـة ونشـتري منـه الصنـف!! ولإجراء هذه المناقصة فإن الأمر يتطلب تشكيل لجنـة لممارسـة الحكيم في المستشفى.

وأسقط في يدي أنا والوزير.. ولم يعد لدينا أي حيلة.. وقرر الوزير فورا تشكيل لجنة من اثنين هما أنا والسيد الوكيل الأول برئاسته.. وذهبنا إلى توفيـق الحكيـم.. وبعـد جلسـة المجاملات والاطمئنان على صحته الغالية.. عرضنا عليه رغبة الـوزارة في شراء مسرحيته الخـالدة (إيزيـس) بمبلـغ خمسـة آلاف جنيـه.. فتهلل وجهه فرحـا.. ثـم رجاه السيد الوكيـل الأول أن يكـرمنـا ويكرم الوزارة بأن ينزل مـن السعر ولـو عشـرة جنيـهات.. فلـم يفهم الحكيم هذا الطلـب الغريـب.. ولكنـه وافـق دون أن يـدري

السبب.. وخرجنا من غرفته بعد السلام والتحية الحارة.. لنجلس في غرفة مدير المستشفى لنكتب محضرًا بالمناقصة التي لم يكن يدري الحكيم أننا قد أجريناها معه، وكنت أنا والسيد الوكيل الأول أول وآخر من أجروا مع توفيق الحكيم دون أن يدري مزايدة أو مناقصة باعتبار أن مسرحيته العظيمة هي (صنف وحيد)!

.. نعمل إيه.. حكومة!

حلم موظف

في إحدى قصص تشيكوف الرائعة وعنوانها (موت موظف) تصل دعوة مجانية لموظف صغير بسيط بإحدى المصالح الحكومية لكي يشاهد مسرحية في دار الأوبرا.

وكان أقصى حلم راود هذا الموظف البسيط، إذا فكر في قضاء سهرة ترفيهية، أن يذهب إلى إحدى المقاهي الشعبية.. يشرب الشاي.. ويعود إلى منزله.. أما أن تواتيه الفرصة لكي يلج باب دار الأوبرا.. ويجلس في مقاعدها الوثيرة.. وسط علية القوم كأنه واحد منهم فهذا ما قصرت كل أحلامه وخيالاته عن تصوره.. وعندما واتته هذه الفرصة الرائعة لم يصدق نفسه.

فها هي الحياة تبتسم له أخيرا بعد سنوات من المعاناة والفقر والعجز عن الاستمتاع بأبسط حقوقه كإنسان.. وهي أن يعيش كما يعيش بقية الناس.. وأن يرتاد المطاعم والمسارح والأوبرات.. ويجد الفرصة لأن يروح عن نفسه.. ويجد غذاء لروحه وعقله ووجدانه.. وألا يترك نفسه حتى آخر العمر فريسة لروتين الحياة اليومية الطاحن.

وعندما اقترب اليوم الموعود، وكان عليه أن يذهب إلى دار الأوبرا في اليوم التالي، لم ينم ليلتها، وقضى الليل يغسل أفضل ما لديه من ثياب ويكويها.. ويعيد كيها.. ويزيل ما قد يكون قد شابها من بقع أو من عوادي الزمن.. حتى يكون مظهره لائقا بالمكان الذي سيجلس فيه ليلة الغد.. وسط كبار القوم كأنه واحد منهم .

وفي الموعد المحدد توجه الموظف إلى دار الأوبرا.. وفي يده اليمنى أمسك بتذكرة الدعوة وقد استماتت عليها أنامله المعروقة المكدودة كأنه قد أمسك بيده سر السعادة. أو سر الحياة نفسها.. وانتظم في صفوف الداخلين.. ولم يلبث أن وجد نفسه جالسا على مقعد وثير من القطيفة الحمراء في الصفوف الأمامية.. وأمامه ستار المسرح الفخم الذي لم ينفرج بعد.. وعندما ينفرج سوف تضيء الأنوار.. وتصخب خشبة المسرح بالحياة وبالأضواء والألوان.. فكأن الحياة كلها قد فرجت أمامه أساريرها.. وكأن الدنيا قد ابتسمت بعد طول عبوس وقنوط.

ولأول مرة يشعر الموظف البسيط بأنه إنسان بكل معنى الكلمة.. إنسان له قيمته وحيثيته في المجتمع.. ولأول مرة يشعر بأن الحياة حلوة.. حلوة .

وفجأة.. ودون سبب يدريه.. شعر ذلك الموظف البسيط بأنه يريد أن يعطس.. حاول أن يكتم (العطسة) وألا يخرجها.. حتى لا يزعج أحدا بجانبه أو أمامه أو خلفه.. وكلهم- كما كان يلاحظ- من علية القوم.. رؤساء المصالح والجنرالات وكبار أفراد الارستقراطية.. حاول كل جهده.. فلم يفلح.. عطس الموظف البسيط عطسة قوية خرجت من أعماق الأعماق من خياشيمه صدر عنها دوي غريب كأنه قنبلة صغيرة تنفجر واستدار لصوتها كل من كان يجلس حوله.

لكن رذاذ تلك العطسة المضرية التي خرجت دون إرادة الموظف البسيط وبشكل خارج تماما عن سيطرته كان قد صوب نحو قذال الشخص الجالس أمامه. وكان الموظف قد لاحظ قبل أن تخرج هذه العطسة ورذاذها المؤذي من خياشيمه أنه شخص منتفخ الأوداج فاخر الثياب يبدو من جلسته الواثقة على الكرسي الواقع أمام الموظف تماما أنه من ذوي السطوة والنفوذ.

التفت هذا الشخص وراءه وقد أصابه رذاذ عطسة الموظف البسيط قذالته ورأسه، ونظر إلى الموظف شذرا والشرر يتطاير من عينيه الغاضبتين.. وكانت المفاجأة.

كان هذا الشخص الجالس أمام الموظف مباشرة، والذي أصابه رذاذ عطسته اللا إرادية هو الرئيس الأعلى للدائرة الحكومية التي يعمل بها الموظف البسيط، الرئيس الذي لا يحلم أن يراه، ناهيك عن أن يخاطبه أو يجلس معه في مكان واحد، أو حتى تقوده المصادفة البحتة لأن يحتل خلفه مباشرة مكانا في دار الأوبرا.

أصاب الموظف البسيط اضطراب شديد.. وشعر بغم وكرب شديدين.. وكادت الدنيا.. تميد من تحت قدميه.. وكان ستار الأوبرا قد انفرج وبدأ العرض.. وبدأ صوت الممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات يعلو ويتردد في القاعة على نغمات الموسيقى الحالمة.. وكانت أضواء المسرح وألوانه تبهر العيون وتخلب الألباب، لكن الموظف البسيط لم ير شيئا من هذا كله أو يلتفت.. فقد كان يفكر في أنه قد عطس على قذال رئيس رؤسائه.. الرئيس الأعلى للدائرة التي يعمل فيها. ولابد أن هذا الرئيس الخطير قد غضب غضبا شديدا لتلك العطسة التي لوث رذاذها جزءا من رأسه.. ولابد أنه سوف يفصله من عمله في صباح اليوم التالي مباشرة.. فمن أين سيجد بعد ذلك من النقود ما ينفق على الزوجة والأولاد ولقمة العيش المريرة.

وبأدب شديد ممزوج بذعر داخلي هائل حاول الموظف أن يكتمه في داخله فلا يجعله يظهر على قسمات وجهه.. ربت الموظف برقة شديدة على ظهر الرئيس الخطير الذي كان قد اندمج بالفعل في مشاهدة الرواية المعروضة على خشبة مسرح دار الأوبرا والتفت الرجل فإذا بالموظف يبادره معتذرا.

-سيدي.. إنني في أشد الأسف.

-وابتسم الرئيس الأعلى ابتسامة خفيفة قائلا:

-لا عليك.

لكن الموظف عاوده:

-سيدي.. لم أكن أقصد إطلاقا أن أفعل ما فعلت.. أنت تعرف أن العطس شيء لا إرادي.. والمسألة كلها سوء حظ.

بانت على وجه الرئيس الأعلى أمارات الضيق.. وأشار للموظف أن يصمت الآن حتى يتمكن من متابعة أحداث الرواية والاستمتاع بما يجرى على خشبة المسرح.. وانتهت الليلة والموظف البسيط لا يدري كيف قضاها.. لقد سهر ليلته خائفا مذعورا من غضب الرئيس الأعلى.. وحكى لزوجته القصة فأشارت عليه أن يذهب إلى مكتب الرئيس الأعلى في صباح اليوم

التالي ويعتذر له مرة أخرى.. وفي الصباح ذهب الموظف البسيط إلى مكتب الرئيس الأعلى ووقف في طابور طالبي المقابلة.. وحين جاء دوره للدخول بعد عدة ساعات من الانتظار.. بادره الرئيس الأعلى باسما:

-ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟.. بادره الموظف متلعثما خائفا:

-بالأمس.. في دار الأوبرا- بادره الرئيس مقاطعا:

-أنا لا أذكر.. وعموما ليس لدي وقت أضيعه..

قال الموظف..

-أريد أن أعتذر لكم. قال الرئيس مقاطعا ضائقا:

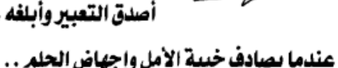
-لقد قبلت الاعتذار فلا تضيع وقتك ووقتي.

وانصرف الموظف وقد اسودت الدنيا في عينيه فقد تصور أن الرئيس الأعلى غاضب منه غضبا شديدا.. وهو لا يدري أن هذا الرئيس الأعلى لا يذكره ولا يعرفه من بين آلاف الموظفين الصغار الذين يعملون في دائرته.

وتنتهي القصة نهاية غريبة. فالموظف البسيط يشعر بضيق لا نهاية له. ويرى العالم كله أمامه مظلما.. ويتصور أن الرئيس الأعلى غاضب منه أشد الغضب بسبب تلك العطسة.. فيسير بلا هدى وقد غامت الدنيا في عينيه وعندما يتعب من السير يجلس على أريكة خشبية بإحدى الحدائق العامة.. ويغمض عينيه.. ويموت.

تذكرت هذه القصة الجميلة للكاتب الروسي تشيكوف وأنا أتأمل حال الموظف الحكومي وهو يضرب أخماسا في أسداس لكي يسدد جميع التزاماته الشهرية، ثم يأتي العيد ومستلزماته من ملابس جديدة والدروس الخصوصية وفواتير الكهرباء والتليفونات والحسبة المستحيلة التي تدفع به إلى الجنون حول الفرق بين المرتب ومتطلبات الحياة.. والهرم الاجتماعي المقلوب الآن الذي جعل فلان باشا وعلان بك يهربون بمدخرات العمر القليلة في البنوك، والأتوبيس والميكروباص المحتشد كعلب السردين يتشعلق فيه كل يوم ليصل إلى عمله فيكاد يقع به في النيل.. وتأتي المصيبة عندما يعطس أيضا على قفا رئيسه فلا يجد مهربا من كل هذا إلا الموت!!

بائع البندق !



للكاتب الفرنسي الأشهر جي دي موباسان قصة شديدة الجمال.. شديدة العذوبة تعبر أصدق التعبير وأبلغه عما يشعر به الإنسان عندما يصادف خيبة الأمل وإجهاض الحلم ..

كانت القصة- واسمها (العم جول)- تتحدث عن أسرة فرنسية صغيرة.. عن أب فقير وزوجته الكادحة وبناته اللاتي بلغن سن الزواج.. وكانت الأسرة التي تعيش في مدينة ساحلية صغيرة- تحيا حياة الفقر والضنك.. الأب يعمل عملا شاقا طيلة نهاره وجزءا من ليله، فلا يكاد دخله الضئيل يفي بأبسط حاجات أسرته من مأكل ومشرب وملبس.. والأم تقضي أيامها في حزن مقيم وقلق دائم على مصير بناتها.. ترى هل يتزوجهن أحد والأسرة على هذه الحال من الفقر وشظف العيش؟..

وكانت الأسرة تتذكر في ليالي الشتاء الطويلة القارسة البرد قريبا لها رحل منذ زمن بعيد إلى أمريكا.. عشرون عاما أو يزيد انقضت منذ رحيله وانقطعت أخباره.. رحل العم جول

ليجري وراء حلم الثراء في القارة الجديدة وتـرك الأسـرة تعـاني فقرها وكفاحها اليومي من أجل لقمة العيش.

وفي ليالي الشـتاء البـاردة.. كـان الأب والأم والبنـات يجتمعـون حول بقايا الفحم المتكوم في المدفأة يذكـرون العـم جـول المسافر بعيدا بعيدا بعد أن انقطعت أخباره تماما.. والذي يبدو أنه قـد صادفه الحظ في القارة الجديدة فأصبح من الأثـريـاء.

وذات يوم مطير.. سماؤه ملبـدة بـالغيوم.. ورعـوده تلمـع في السحاب وصل ساعي البريد ليطرق باب الأسرة الصغيرة وفي يده رسالة من العم جول.

قفز قلب الأب من المفاجأة، وقفزت معه قلوب الأسـرة كلـها.. كانت مفاجأة لم ينتظرها أحد.. بعد عشرين عاما مـن الفـراق ومن رحيل العم الذي اعتقدت الأسرة كلها أن الأيام قـد ابتلعتـه فأثرى ونسى كل شيء عنهم أو.. أنه قد مات!

وبيد مرتشعة فتح الأب الرسالة ليجد مفاجأة أخرى.. لقـد أرسل العم جول يقول إنه- وبعد كل هـذه السـنين- سـوف يصـل على الباخرة التي تصل ميناء مرسيليا بعـد أسـبوعين.. وحـدد اليوم والساعة والتاريخ..

جلست الأسرة كلها لاهثـة مـن المفاجـأة.. هـا هـو العـم جـول الذي عاش في أمريكا نيفا وعشرين عاما يعود إليهم.. ولابد أنـه سيعود محملا بثروته التي جمعـها مـن بـلاد الغربـة.. وهـا هـي أبـواب الأمـل والسـعادة سـتتفتح جميعـا أمـام الأسـرة علـى مصراعيها.. وها هو ظلام السـنين الطويلـة مـن الفقـر والفاقـة والمعاناة والألم سوف يتبدد دفعة واحدة..

كـان أول خـاطر لـلأم هـو أنـه قـد آن الأوان لـتزوج بناتـها.. وراحت تحدد ملامح العريس القادم لكل بنت من البنات.. لابد أن يكون ثريـا ومـن أسـرة عريقـة حتـى يليـق ببناتـها وعمـهن الثري القادم من أمريكا.

وراح الأب يحدد شـكل المنزل الجديـد الـذي سـينتقلون إليـه جميعا بعد وصول العم جول.. سوف يقولون وداعا لهـذا الجحـر الصغير الخانق المظلم الذي يسكنونه.. وسوف يشـتري لهـم العـم جـول مـنزلا كبـيرا متعـدد الطوابـق ذا صـالات فسـيحة ونوافـذ كبيرة متسعة تدخل منها الشمس فتشيع الدفء في المكـان كلـه.. وسوف يشتري لبناته فساتين جديدة زاهيـة الألـوان، ولزوجتـه قبعة أنيقة من تلك التي ترتديها سيدات الطبقة الراقية!

وفي الموعد المحدد ذهبوا جميعا إلى الميناء ليكونوا في استقبال العم الغائب جول وقد ارتدوا أفضل ما لديهم من ثياب بعد أن غسلوها وكووها عدة مرات وأخذوا يتخيلون لحظة اللقاء الأولى.. سوف يأخذ الأب شقيقه جول في أحضانه أولا ويبكي.. وسوف يطول العناق طويلا.. وجول- وعيناه مغرورقتان بالدموع- سوف يربت على ظهر الأب في حنان.. وسوف تسلم الأم بعد ذلك على شقيق زوجها وتذكره بأنها كانت تتنبأ له دائما بهذا المستقبل الباهر في العالم الجديد وترجوه أن ينسى الآن ما كان بينهما من جفاء قليل.. وسوف يقوم الأب بعد ذلك بتقديم ابنتيه الاثنتين إلى العم جول الذي لم يكن قد رآهما من قبل، وسيعجب العم جول بجمال البنات ويسأل عن أزواجهن وسيجيب الأب أنهن انتظرن حتى يصل عمهن كي يختار لهن أزواجا لائقين، وسيركبون جميعا العربة التي ستتهادى بهم جميعا إلى المستقبل الجديد.

ووصلت الباخرة تتهادى في البحر.. واشرأبت أعناق الجميع وتسمرت أنظارهم عند السلم الذي ينزل منه الركاب، وأخذت الأم تحث زوجها أن يبحث عن جول بين جموع النازلين من الباخرة.

ومضت الساعات ولم ينزل أي إنسان يستطيعون أن يتعرفوا منه على شخص العم الغائب.

وساور الجميع القلق.. وطلبت الأم من زوجها أن يصعد إلى قبطان الباخرة ويسأله إن كان معه راكب بهذا الاسم.. فقد أكد جول في رسالته أنه لابد قادم على هذه الباخرة بالذات.

صعد الأب إلى السفينة يقدم رجلا ويؤخر أخرى.. والتقى بالقبطان وسأله عما إذا كانت السفينة تحمل راكبا بهذا الاسم.. وبلا مبالاة أشار له القبطان إلى رجل عجوز مهدم يجلس على الرصيف.. يبيع في سلة صغيرة قذرة حبات البندق.. وحكى له قصته.. نعم لقد عانى هذا الرجل في أمريكا معاناة شديدة.. وعاش شظف العيش حتى أصبح عجوزا مهدما.. وتقدم إلى قبطان السفينة يرجوه أن يقبل أن يركب معه عائدا إلى بلاده، وأن يعمل على السفينة أي عمل لقاء أجرة سفره، وأن يسمح له بأن يبيع للركاب حبات البندق- وهي المهنة التي كان يسترزق منها طوال سنواته الطوال في أمريكا- وأشفق القبطان عليه وسمح له بذلك.

وعاد جول، وجلس منزويا على رصيف الميناء يبيع حبات البندق للمسافرين والمستقبلين.

وعندما نزل الأب والدموع في عينيه ليحكي لزوجته قصة جول اقترب الاثنان من الرجل المهدم.. وتعرفا على ملامحه المغضنة ووجه الشاحب على الشقيق الذي رحل شابا منذ عشرين عاما..

وعادت الأم إلى بناتها لتعلن لهن أن العم جول لم يصل!!

كانت هذه القصة الجميلة شفاء لروحي بعد ليلة عانيت فيها خيبة الأمل وانكسار الأحلام.. وأدركت أنه مهما كانت الحياة قاسية.. فالفن جميل.. جميل.

طه حسين والحب !

هل سمعتم طه حسين يتحدث فى الحب؟!
كانت هذه مفاجأة حقيقية لى عندما
فتحت المجلد الثانى من مجلته الرائعة
(الكاتب المصرى) التى صدرت عام ١٩٤٥ فوجدت مقالاً بقلم طه حسين شخصيا وعنوانه (فى الحب).. يا نهار أسود! طه حسين الذى عودنا أن يكتب فى الشعر الجاهلى، وعلى هامش السيرة، والوعد الحق وهو من أعظم الكتب التى أرخت لظهور الإسلام، والأيام، التى صور لنا فيها رحلة أيامه المليئة بالمعاناة والعذاب تحت وطأة الفقر والحرمان من البصر.. طه حسين المعلم والعميد والوزير، يكتب فى الحب؟! ألم ير كيف أن نائبا من الإخوان المسلمين عندنا قدم استجوابا منذ أيام إلى مجلس الشعب يطالب بمصادرة كتاب عن الحب أصدرته هيئة الكتاب يستخدم الموروث الأدبى والدينى العربى ليصل بطبقات العلاقة بين الرجل والمرأة إلى مراتب صوفية شديدة السمو؟ ألم ير طه حسين وهو يكتب هذا المقال فى الحب أن الكلام عن الحب أصبح بعد خمسين سنة من وجهة نظر البعض ممنوعا

كالمخدرات والمسكرات، أو على الأقل مكروها مثل السجائر وسائر الموبقات؟! ألم يسمع أن هناك تكتل برلمانى موجود الآن سوف يطالب فورا بشطب اسم طه حسين من خريطة الأدب العربى، ليس فقط لأنه طالب بمراجعة التراث العربى ودراسته من وجهة نظر علمية موضوعية، أو لأنه كان من أعظم من كتب سيرة الرسول لكن بعيدا عن تفسيرات وحذلقات مدعى الفقه المنصبين أنفسهم كهنة الدين فى دين لا يعترف بالكهنوت ولا بالواسطة بين العبد وربه. لا بد أن هؤلاء وبعد خمسين عاما من كتابة هذا المقال فى الحب سوف يقولون: (اضبط طه حسين) موجهين إليه تهمة أخطر وأكبر من التهم التى وجهوها إليه حين جرؤ على م راجعة التراث العربى فى بحثه العظيم عن (الشعر الجاهلى).

تهمته هذه المرة أنه يدافع وبالفم المليان عن عاطفة سامية لا بد أن ننكرها جميعا فى عصر الفضائل الذى نعيشه الآن.. عصرنا هذا الذى خلا من الفساد والرشوة والمحسوبية والإحباط والعلاقات المشبوهة والجنس والعرى والدروشة.. عصرنا الذى يكفى فيه مرتب مائة جنيه يتقاضاه موظف الحكومة لكى تعيش عليه عائلة كاملة من أب وأم وخمسة أبناء

فى هناء عائلى لا يحسدون عليه، فيأكلون ويشربون ويلبسون ويتعلمون ويتفسحون ويمارسون الحب الحلال !.

فى هذا المقال المشبوه عن الحب. يستهل العميد مجلته الكاتب فى افتتاحية عدد فبراير ١٩٤٦ (منذ أكثر من خمسين سنة) قائلاً: (لقد كانت حياتنا فى العصر الأول أسمح من هذا كله وأكثر يسرا، وكانت أحاديث الحب لا تثير سخطا ولا عبوسا، وإنما تثير رضا وابتهاجا وتدعو إلى الروية والتفكير فى كثير من الأحيان).

(لاحظ كان هذا فى عام ١٩٤٦.. شايفين الإباحية!! كان ذلك قبل أكثر من خمسين عاما.. إذ يقول لنا طه حسين أن الحب قيمة رائعة من قيم الحياة. والآن نجد من يقول إن حديث الحب حرام ومساس بالقيم الدينية والأخلاقية).

وأقرأ الفقرة الثانية من المقال المنشور من خمسين عاما لأعظم دارسى التراث العربى والأدب العربى فأجده يؤكد وبمنتهى الوضوح على أنه لا تناقض ألبتة بين الحب والمشاعر الدينية. ويقول إن شعر الغزل الذى يصل إلى مراحل سامية من التصوف ربما كان خير ما يستحق البقاء من شعرنا العربى

القديم، قائلا : (ونحن نقرؤه فنجد راحة إليه واستمتاعا به لا يشوبهما مجون ولا يتصل بهما ميل إلى العبث واللهو) .

ملحوظة : (لم يفكر طه حسين فى ذلك الوقت كما فكر النائب المحترم بأن يمسك بتلابيب رئيس هيئة الكتاب ويطالب بإقالته ولكن رئيس هيئة الكتاب (وهو فى انتظار أن يفقد وظيفته كما يطالب النائب المحترم) مضى يقرأ فى مقال طه حسين ما يلى في وصفه لشعر الحب والغزل غير عابئ بالأفكار المظلمة التى يروجها البعض فيجد طه حسين يقول: (إن هذه الأشعار تجد فيها النفوس غذاء روحيا يرتفع بها عن صغائر الحياة ويعزيها عن هذه السفاسف اليومية التى تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع). ويضرب أمثلة أخرى تصيب تفكير البعض ممن ينصبون أنفسهم حفظة للدين والأخلاق فى مقتل فيقول:

(على أن هذا الهيام الذى شمل النفس العربية فى نجد وشمال الحجاز لم يتردد فى أن يغزو البيئات الدينية والعلمية الصارمة الحازمة فى مكة والمدينة. فكان شعر جميل وكُثير والقيسين ينشد فى المسجد الحرام، وينشد فى المسجد النبوى ويستمتع به فى هذين المسجدين المطهرين قوم وقفوا أنفسهم

على رواية العلم والدين لا يجدون فى ذلك حرجا ولا جناحا، وربما تجاوز بعضهم هذا الاستمتاع بأحاديث الحب وما كان ينشد فيه من شعر إلى الحب نفسه).

ويستطرد طه حسين: (وقد كان عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى صاحب قراءة للقرآن ورواية للحديث وإقبال على النسك والزهد وتفرغ للعبادة والطاعة، حتى لقبه أهل مكة بالقس. فلم يمنعه ذلك حين رأى سلامة وسمع غناءها أن يحبها حبا انتهى به إلى الهيام وجعله شاعرا غَزِلاً كغيره من الشعراء الغزليين. لم يجد فى ذلك حرجا ولا جناحا، لأن ذلك لم يورطه فى إثم ولا فسوق. القس هو الذى يقول فى سلامة هذين البيتين الرائعين :

سلام هل لى منكم ناصـــر   أم هل لقلبى عنكم زاجرُ

قد سمع الناس بوجدى بكم   فمنهم اللائم والعـــاذر

ويزعم الرواة أن سلامة أحبت القس وحببت إليه، وهمت ذات يوم أن تقبله كما يقول الرواة، لكنه امتنع عليها مؤثرا نقاء القلب وصفاء الضمير، مشفقا أن ينعم بحبها فى الدنيا

فيشقى بحبها فى الآخرة . ويصبح من هؤلاء الأخلاء والأعداء الذين ذكرهم القرآن الكريم) .

ماذا لو كان طه حسين يعيش بيننا الآن؟! أغلب الظن أن مصيره كان سيصبح مظلما.. وسوف يطالب البعض باقتياده إلى ميدان عام حيث تعقد له محاكمة علنية بجوار البرلمان بتهمة الدفاع عن الحب كعاطفة إنسانية سامية، والكذب على القراء بالقول بأن أشعار الحب كانت تلقى فى المسجد الحرام.. والمسجد النبوى.. وربما ناله خنجر كذلك الذى نال رقبة نجيب محفوظ.. والراجل مش ناقص فهو كان قد فقد بصره وهو صبى، وربما طالب البعض بتجريده من منصب الوزارة الذى شغله ذات يوم، وطالبوا بإلغاء أفكاره (المهببة) الخاصة بضرورة (أن يكون التعليم كالماء والهواء..) وبذلك يعيدون المصاريف إلى المدارس فتصبح بالإضافة إلى الدروس الخصوصية كارثة تحول حياة الأسرة المصرية إلى جحيم لا يطاق، وربما يطالب البعض أن يحرموه من لقب عميد الأدب العربى بعد أن اجترأ على المساجد المقدسة بالقول المذكور أعلاه !.

فيا طه حسين وعصر طه حسين أشفقوا علينا وعلى ما وصلنا إليه من تخلف يندى له الجبين !.

الأستاذ يجلس وحيدًا !

يظل الإنسان يقرأ لكاتب كبير، أو يعجب بشخصية عالمية من شخصيات السياسة أو العلم أو الفن أو الأدب، ولا يتصور أبدا أنه سيلتقي بها. تظل هذه الشخصيات تدور في فلك الأحلام، أو بالأحرى تظل حلماً رمادياً يغلفه الضباب، يعيش في مخيلة الإنسان، يهرب إليه في غمرة تفاصيل الواقع ليعيش من خلاله لحظة نورانية مستحيلة، فيتصور أن هذا العملاق أو ذاك ممن سمع بهم أو قرأ لهم قد استطاع أن يفلت من قبضة الزمان والمكان، وأصبح ظلاً يظلل الأرض بنور علمه أو فنه أو شهرته، فلم يعد جزءا من الحياة اليومية التي ترسم ألوانها الكالحة عوادم السيارات، وزحام المدن، والسعي وراء لقمة العيش، والأحقاد الصغيرة .

ذات صباح وأنا أسعى إلى محاضراتي في تلك الجامعة الأمريكية في أواسط الستينيات جاءني من يقول بأن أستاذي الألماني الأصل هورست فرنز يطلب مني الحضور لمقابلته، فتوجهت فورا إلى مكتب الأستاذ فقد أحسست أن الأمر لابد أن يكون خطيرا، وعندما دلفت إلى مكتبه استقبلني بوجهه البشوش وابتسامته الخفيفة التي تعلو دائما صفحة وجهه الوسيم القسمات، وسألني إن كنت قد سمعت بالأستاذ الكبير رينيه ويليك وكان ملء السمع والبصر في تلك الأيام، فقد كان

أستاذا لأساتذة الأدب، خاصة في مجال النقد الأدبي ودراسات الأدب المقارن، وكان يشار إليه أيضاً بأنه أكبر مؤرخ للأدب في عصرنا، كما أنه كان أكبر نقاد الأدب في العصر على الإطلاق. وكانت كتبه الكثيرة منها: (تاريخ النقد الأدبي) و(نظرية الأدب) هي الأساس الذي يتعلم منه جميع دارسي الأدب وأساتذته على طول العالم الغربي وعرضه، والكثير أيضاً من بلاد الشرق.

أومأت إلى أستاذي بأنني أعرف طبعاً (البروفيسور رينيه ويليك) ، وأنني مدرك لشهرته الواسعة وصيته الذائع، وكنت مستعداً- على قدر علمي الضئيل- أن أجيب على أسئلة قد يلقيها عليّ أستاذي فيما تحويه كتب رينيه ويليك من معلومات ونظريات وفيرة. لكن الأستاذ لم يسأل شيئاً من ذلك وبدلاً من أن يضعني في موضع الامتحان كما توقعت في أول الأمر، سألني إن كنت أحب أن أرى رينيه ويليك شخصيا رأى العين، وأجلس إليه وأتجاذب معه أطراف الحديث.

دُهلت لهذه الدعوة المفاجئة، فلم أكن لأتصور ابدا أنني سأرى في حياتي ذلك الأستاذ الكبير العظيم الشهرة الواسع النفوذ في الدوائر العلمية والأدبية والعالمية، ناهيك عن أن أجلس إليه وأتجاذب معه أطراف الحديث.

سألت أستاذي عن سبب اختياري أنا بالذات لهذا الشرف العظيم ، فأجابني أستاذي ببساطة وبشيء من اللامبالاة :

- لأن الأستاذ الكبير يجلس في غرفته وحيدا !

الأستاذ يجلس وحيدا ؟! كان هذا آخر ما يمكن أن أتصوره، لقد جاء البروفيسور الكبير رينيه ويليك إلى هذه الجامعة، وقطع آلاف الأميال من مقر عمله في شرق الولايات المتحدة ليلقي محاضرة عامة احتشدت لها الجامعة وأساتذتها، وظلوا يعلنون عن موعدها ويرتبون لإقامتها شهورا طويلة، فقد كان حدثاً علمياً كبيرا أن يأتي إلى الجامعة رينيه ويليك. وفعلاً كانت محاضراته في (مناهج الأدب المقارن) فتحاً جديدا في ذلك العلم الجديد، فقد تحدث عن نظريته في (عالمية الأدب) التي تتمثل في هجرة الموضوعات الأدبية من مجتمع إنساني إلى مجتمع آخر بحيث تتشابه وتتكرر الموضوعات في آداب الأمم شرقاً وغرباً مهما اختلفت ثقافاتها وخلفياتها الحضارية، مما يثبت من خلال الدراسة المقارنة للأعمال الأدبية أن الوجدان الإنساني واحد، وأن التجربة الإنسانية واحدة في كل مكان وزمان.

قال الأستاذ الألماني لتلميذه الأسمر :

-اذهب إلى رينيه ويليك، واجلس معه. حاول أن تسري عنه بحكاياتك الشرقية فهو ضيق الصدر .

وسألت في دهشة: ولكن- سيدي- لماذا يضيق صدر الأستاذ الكبير؟

أجاب: لأن أحدا لم يطرق بابه، أو يطلب مقابلته رغم أنه جالس في تلك الغرفة من ساعات .

وبعد المحاضرة دارت مناقشة علمية واسعة من الطلاب والأساتذة، ثم انصرف (البروفيسور رينيه ويليك) إلى حجرة فاخرة أعدت له خصيصاً ليختلي إلى نفسه يتأمل أو يستريح ريثما يأتي موعد المأدبة الرسمية التي تقيمها له الجامعة في السادسة مساءً .

أردفت قائلاً :

-لعله آثر أن يجلس وحده ليتأمل، أو يعيش في بحر أفكاره.

-قال الأستاذ :

لقد كان يتوقع أن يسعى الجميع إليه في غرفته، يشرفون بالمثول في حضرته، يتحدثون إليه. ويرون بعيونهم ذلك العملاق جالساً يشرب الشاي مثله مثل أي إنسان آخر، لكن أحدا لا يريد أن يطرق أبواب العمالقة، فالجميع بشر !

اندفعت إلى غرفة الأستاذ الكبير، وقلبي يرجف من الخشية، وقدمت نفسي، ومضيت أحكي حكاياتي الشرقية والأستاذ واجم أول الأمر، ثم تهللت أساريره شيئاً فشيئا، وطلب مني أن ننزل معا إلى مقهى صغير في صخب الحياة، وأن نتناول الشاي معا على رصيف المدينة. وفي المقهى اتصل الحديث بيننا حميماً كصديقين قديمين تلاقيا بعد فراق طويل في الزمن الصعب،

وحكى الأستاذ عن فتاة أحبها في صباه ورفضت زواجه بسبب منظاره السميك .

وحكيت له عن فتاة شرقية في بلدي أرادت الإيقاع بي لأتزوجها ، فضربت لها موعدا في أكثر ميادين العاصمة ازدحاماً ولم أذهب.

وفي اليوم التالي اعتذرت لها بأنني لم أرها وسط الزحام، ففهمت أنني لا أريد الزواج منها وانصرفت عني في هدوء. وضحكنا طويلاً لهذه التفاصيل التافهة الصغيرة، وشعرت في أعماقي أن الأستاذ الكبير كان يحس بسعادة لا حد لها، بعد أن تكسرت كل حواجز المنصب والهيبة، وزالت عنه الغربة، وعاد يلتقي بنهر الحياة كأدفأ ما يكون، وأكثر ما يكون تدفقاً وحرارة.

وخطر ببالي أن العظمة عندما تصبح قدرا للإنسان الكبير تجعل منه نسرا مهيباً ينشر في السماء جناحي الرهبة، لكنه عندما ينظر إلى الأرض من عليائه يدركه ذلك الشعور الأليم بأنه وحيد.. وحيد، وأنه يحتاج ولو للحظة إلى لمسة حنان، حتى من إنسان غريب .

من يشتري طوبة في هذا الوطن ؟

كنا نجلس وسط جمع غفير من البسطاء والعائلات الإسكندرانية الأصيلة في ساحة شعبية أمام منزل عبقري الموسيقى سيد درويش بكوم الدكة في ليلة ندية منعشة من ليالي الإسكندرية الجميلة.. وكان الاحتفال بمولد سيد درويش يجمعنا في نشوة الغناء وروعة الموسيقى التي قدمتها فرقة مركز الإبداع مع بعض مطربي الأوبرا ونظمها المهندس عوف همام رئيس لجنة الثقافة بمجلس محلى الإسكندرية، وكان- ضمن هذا الجمع الغفير- مجموعة من المثقفين والمبدعين والفنانين، ثم توحدنا جميعا مع أطفال الحي ونسائه ورجاله بفعل موسيقى سيد درويش، فأصبحنا- مع تسلل الأنغام الساحرة إلى أرواحنا- كتلة واحدة من المشاعر تغني للبسطاء من الصناع والفلاحين والعمال والموظفين، وترسم في شموخ صورة الوطن المليء بالكبرياء عندما صحنا جميعاً وفي نفس واحد صيحة سيد درويش الخالدة (أنا المصري.. كريم العنصرين) وامتلأت أرواحنا فخرا بهذا الوطن الجميل ونحن نغني معاً (بلادي بلادي) .

وكان مذيع الحفل هو الفنان السكندري المولد والهوى سمير صبري الذي جاء متطوعا ليقدم هذه الليلة الرائعة وأخذ يجري حوارات مع الحاضرين الذين أجمعوا على عظمة سيد درويش وأهميته في تاريخ الموسيقى العربية عندما صاح أحد الجالسين في الساحة أمام خشبة المسرح :

-قل له يا أستاذ سمير يبيع البيت !!

واتجهت الأنظار نحو المالك الذي كان يجلس في الصفوف الأولى أمام المسرح الذي أقيم على عجل في الحارة أمام منزل سيد درويش .. ومن الحوار عرفنا أن بيت سيد درويش لم يكن يملكه سيد درويش ولا أحد من أبنائه، وإنما يملكه هذا الرجل من أهل الحارة.. وأن البيت كان مملوكاً لوالده، وكان الموسيقار وأولاده يعيشون فيه بالإيجار! وأنه بعد أن ذاع صيت البيت وساكنه وضع الملاك وورثتهم ثمناً هائلاً للمنزل ورفضوا أن يبيعوه بثمن معقول لوزارة الثقافة حتى تحوله إلى متحف لسيد درويش.. وأنهم- أي الورثة- مازالوا ينتظرون الفرصة حتى يقبضوا من هذه الفرصة ثروة هائلة !

عاد الرجل يصيح : (ما تبيعوا البيت بقى.. عايزين متحف سيد درويش) .

فكرة رائعة حقاً.. كل الشعوب تستمد هويتها وانتماءها الوطني من المحافظة على تراث مبدعيها، ونحن لسنا بأقل من الإنجليز الذين أعادوا بناء مسرح الجلوب بلندن- وهو المسرح

الذي عمل أمامه شكسبير دُرة شعراء الإنجليز وفخر إنجلترا الأبدي.. أعادوا بناء هذا المسرح بنفس طرازه القديم بالضبط لتدخله أو تقف أمامه وكأن الزمن قد عاد بك إلى الوراء إلى عام ١٥٩٩ حين تم بناؤه.. أو كأنك ترى شكسبير وهو يقف أمامه ليعمل سائساً للخيل بعد أن غادر بلدته الريفية ستراتفورد ليجرب حظه وموهبته في المسرح.. إلى أن أصبح ممثلاً وكاتباً ومالكاً لمسرح الجلوب وفرقته المسرحية في رحلة عبقرية نحو الخلود.. خلود الفنان العظيم.. وحتى أصبح شكسبير العظيم يعطى لإنجلترا اسمها فيعرف الكاتب باسم الوطن ويعرف الوطن باسم الكاتب، فإنجلترا هي الآن بلد شكسبير، وشكسبير هو النبت العبقري من تربة بلاده وسيد درويش عندنا قيمة لا تقل عن شكسبير عندهم.

اضطرب وجدان الحاضرين عندما سمعوا أن بيت سيد درويش لن يباع وبالتالي لن يتحول إلى متحف تهوى إليه أفئدة محبيه ومحبي الموسيقى، وجالت عيناي في الحارة العريقة حيث منزله لأردد مع الموسيقى (زوروني كل سنة مرة) ثم أعرج بناظري إلى حيث القهوة القابعة على امتداد الحارة.. وأقول لنفسي هنا كان يجلس هذا العبقري يدندن بأعظم الألحان وأجملها قبل أن يعرفه أحد، وقبل أن ينتقل إلى القاهرة ليصبح رمزا وفخرا لبلاده.. وعلامة مضيئة على جبين هذا الوطن.

صاح الرجل الغاضب مرة أخرى في وجه مالك البيت (أو هو في الحقيقة أحد الورثة) الذي يرفض بيعه بثمن معقول لوزارة الثقافة .

-ما تبيعوا البيت ..

-أجاب: أصل الوزارة ماعندهاش تدفع المطلوب.. والمطلوب كثير.. دا بيت سيد درويش يابا.. بكره ده يبقى متحف يجوه سياح ياما) ..

انبرى أحد الحاضرين.. وكان رجلاً قد تخطى السبعين بكثير، يرتدي جلباباً مليئا بالبقع، لكنه كان متهلل الأسارير ضاحك الملامح يفترّ وجهه المتغضن عن ابتسامة رائعة وتفاؤل مستحب ..

سأله سمير صبري عن اسمه فقال إن اسمه (فرفشة) وضحكنا جميعاً لهذا الاسم الذي ينم عن الروح المصرية الأصيلة التي تؤثر دائماً (الفرفشة) مهما أحاط بها من أسباب الفقر والنكد! وتذكرت أبي عندما كان يحكي لنا عن فلاح من بلدهم يلتهم غداءه المكون يومياً من البتاو والمش والبصل، ويحمد الله قائلاً : (إن زادت عن كده مُسخت)!!

صاح العم (فرفشة) وابتسامة واسعة تعلو وجهه الذي لا تكاد تتبين ملامحه من كثرة التجاعيد ولا يتميز فيه إلا فم مفغور عن ابتسامة واسعة وبداخله سِنّة واحدة كبيرة هي ما

تبقى من كل أسنانه.. (إحنا مش عايزين الوزارة تشتري بيت سيد درويش) .

احنا بقى اللي حنشتريه !

سأل أحدهم..

- أنتو مين ؟

- احنا الشعب يا أخى.. مش الشيخ سيد بتاع الشعب مش بتاع الحكام! هو اللي قالك قوم يا مصري! قوموا بقى قوموا.. ولا أنتو بقيتوا كل واحد مكفي على حاله وبلاويه وبس !!

شعرت أن الحاضرين قد مسهم (فرفشة) في صميم ضمائرهم الوطنية.. وأنهم أصبحوا ممزقين بين هذه الروح السحرية التي بعثتها فيهم موسيقى سيد درويش مع ما صاحبها من سحر المكان: الحارة والمنزل.. والقهوة.. والروح الشعبية الأصيلة، وبين الواقع الذي يعيشون فيه.. فجأة وكأنهم قد سقطوا من حالق كما يقولون.. تذكروا إيجار المنزل ومصاريف المدارس ومطالب الأولاد قبل دخول المدارس.. وتذكروا الارتفاع الجنوني في الأسعار كما تذكروا الفارق الهائل- الذي أصبح علامة من علامات حياة المصريين- بين الواقع والحلم. وبدأ البعض في الانصراف منكسي الرءوس في تخاذل من هزمت روحه، خائفين في نفس الوقت أن يطالبهم متحمس بالتبرع لشراء بيت سيد درويش كما بدا من كلام (فرفشة) .

خطر ببالي أن أدعوهم لأن يفعلوا مثلما فعل الإنجليز عندما أرادوا أن يعيدوا بناء مسرح شكسبير القديم المسمى بمسرح الجلوب على شاطئ نهر التايمز العتيق.. فعندما عجزت الحكومة الإنجليزية عن تمويل مشروع إعادة بناء هذا المسرح الرائع بنفس مواصفاته القديمة وفي نفس مكانه التاريخي على الضفة الجنوبية في النهر.. خطرت ببال أحدهم أن يدعو أفراد الشعب الإنجليزي لأن يشتري من يريد منهم (طوبة) على أن تعرف ا لطوبة باسمه بعد اكتمال إعادة بناء هذا الصرح الرائع الذي يكتسب أهميته من اسم صاحبه الخالد الذكر، وكان أن نجحت الفكرة وتدافع الإنجليز رجالا وأطفالا ونساءً كل منهم يشتري طوبة أو أكثر في مسرح الجلوب حتى أن صديقاً لي هناك أخبرني أن ابنته تفخر دائما أمام أقرانها بأنها تمتلك طوبتين في مسرح الجلوب. ولم يعد الأمر مجرد تبرع، وإنما شعر الإنجليز أنهم يشتركون جميعا كأمة وكشعب في ملكية أغلى وأعظم ما في تراثهم.. ووطنهم.. ملكية حقيقية لا مجازية .

وخطر ببالي أن بيت سيد درويش بالنسبة لمصر ليس أقل أهمية من مسرح شكسبير بالنسبة لإنجلترا.. وهكذا طلبت من الفنان سمير صبري أن أعرض الفكرة على الحاضرين.. وعندما أعطاني الفرصة.. قلت: إننا لن نتبرع لشراء بيت سيد درويش.. وإنما سيكون أمامنا الاختيار ليشتري كل منا طوبة في المنزل، تكتب باسمه في سجل الشرف الذي سيعلق داخل المنزل.. وأقترح أن تكون الطوبة بعشرة جنيهات.. وحينئذ سنكون كلنا

مـالكين للبيـت.. وبمـا أن شـراء أمجـد وأعظـم مـا في الوطـن هـو التعبير الحقيقي لانتمائنا لهذا الوطن.. فإنني أدعوكم منـذ الآن لفتـح باب الشراء .

واحد أو اثنين تقدمـوا لشـراء طوبـة أو طوبتـين مـن قبيـل التظاهر. إحـدى الفنانـات اشـترت عشـر، واشـترى عضـو مجلـس الشعب عن الحي عشر، واشترى أمين الحزب عشر، وتقدمـت أنـا لشراء عشر أخرى.. بعـد ذلـك ران صمـت عميـق.. دارت رءوس هؤلاء الناس البسطاء بما يحمله كل منهم على كاهلـه مـن أعبـاء لا يقوى على حملها أحد في زمن لا يرحـم، وقلت في نفسـي: (أمـا أنك رايق وسخيف صحيح) تطالبهم بما لا طاقـة لهـم بـه، كيـف يفكرون في اقتراح (مرفه كهذا) وهـم يفتحـون التليفزيـون كـل يوم فيجدون القتل والمذابح وحروب الإبادة، وخارطـة الطريـق المسدود.. وزعيم عربي هو ياسر عرفـات تزعـم دولـة إرهابيـة كإسرائيل أنها قادرة على طرده مـن وطنـه، والفوضـى العارمـة تعم العراق بعد أن تم (تحريره!) ، وتهدد بأن تزحف على بقية عالمنـا العربـي، بينمـا يتوعدنـا سـيد البيـت الأبيـض بـالويل والثبور، وعظائم الأمور، وفي الداخل أسـعار جنونيـة تقفـز كـل يوم حتى أصبح خبز المقهورين مستعصيا على الكثيرين ومئات الألوف من الجنيهات تهدر كل يوم في عزومات مجتمع النصف في المائة بمارينا وغيرها، بينما الكثير من الأمهات أصبحـن يشـترين حوافـر الدجـاج ليطبخـن عليـها، فـالفراخ نفسـها أو اللحـوم أصبحت حلما من الأحلام والمسافة بين الواقع والحلم تتسع كل

يوم حتى تصبح بحجم المستحيل.. كيف تطالبهم أن يشتروا طوبا في بيت سيد درويش ونصف شبابهم عاطل لا يجد قوت يومه، والنصف الآخر قد وقع في براثن التطرف؟! لا خوفا من الآخرة، وإنما طلبا لأمان النفس وطمأنينة الروح التي ستحصل يوما على السعادة ولو في الآخرة كما علموهم، أو يقعون في براثن الإدمان ليغيبوا عن الوعي الذي كان مفقودا في الأساس.. كيف تطالبهم وقد أطبقت على أعناقهم الأيام الصعبة بعد أن أصبح كل شيء بالأسعار العالمية وهم يعيشون على رواتبهم التي تدفع لهم بالأسعار المحلية، وبعد أن أصبح اجتياز اليوم الواحد من الصباح إلى المساء بالنسبة لملايين الناس رحلة شاقة من المستحيل إلى المستحيل ؟!.

كيف تطالبهم بعد كل ذلك بالانتماء؟ وأي انتماء هذا بعد أن انقسم المجتمع إلى أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء دون طبقة وسطى تحفظ القيم والأخلاق .

أدركوا شبابنا قبل أن يفقد انتماءه.. وأعيدوا إلى روحه الموسيقى.. فلا تصبح الحياة مجرد ليلة ساحرة مع موسيقى سيد درويش يعقبها ذل وانكسار.. أعيدوا إلى شبابنا وأرواحنا الشعور بالانتماء حتى يستطيع كل منا أن يشتري طوبة في هذا الوطن)!

المحتويات





أيام العمر الجميل

.. عندما يجلس الإنسان إلى نفسه .. يتابع معها الوقائع والأحداث التى عايشها على مدار سِنِى عمره ، منذ أن كان شاباً يافعاً إلى أن أصبح فى مرحلة متقدمة من السن ، فإنه بلا شك سوف يتوقف كثيراً كثيراً ! ..

يضحك لطرائف ، ويتندر لسلوكيات ، ويستنكر لمواقف ، ويتأسى لمعرقلات ، ويتشكر لتعضيدات ، وهكذا مع كل صفحة يقلبها من صفحات حياته ..

ترى إذا ما توافدت هذه الذكريات إلى خاطر[illegible] تبعاتها أمام أعيننا ، فما صدى ذلك فى نفوسنا ؟ ..

الحقيقة تقول إننا سوف نستمتع بكل ذ[illegible] راجعنا هذه الذكريات مرات ومرات .

وإذا كان هذا هو الحال مع أنفسنا ، فكيف إذا [illegible] أحد العلامات البارزة فى حياتنا الثقافية وا[illegible] الدكتور/ سمير سرحان .. !! لا بد أن استمتاعنا س[illegible] مداه .. وهذا هو ما نبتغيه من وراء تقديم هذا الكت[illegible]

الناشر